مصلح محمد

آخر يوم فى حياة مواطن



هـذا المـواطن

وهب كيانه من البدء لضميره الحى.. يفكر ويعمل، يصادق ويخالف، يحب ويرتبط، يثور ويهدأ وفق مايمليه عليه هذا الضمير..

كثرت الإحباطات وتراكمت.. توقف يستكشف أين هو؟! وإلى أين؟!.. نجح؟ نعم ـ ربما نجح لنفسه ولكنه مازال عاجزا عن إنجاح مجتمعه ووطنه.. مازال الجهل ينخر فى أساسات مجتمعه ويتربح من تغييب الوعى.. الأصالة تتلاشى.. الناس تتبزز لم يجد بُدا من أن يصل ما انقطع بينه وأبيه.. يضع همومه بين يديه.. وأبوه يقرؤه.. إنسان أنت فوق الحد.. مواطن فوق الحد.. الفروق واضحة.. تريد أن تعاصر الحلم وهو يتحول إلى حقيقة.. ونحن يكفينا أن نرسى حياة لأجيال قادمة.. تتصور أن ترسخ قواعد ديمقراطية بمقال تكتبه. ونحن نعين ماتحقق فيها والتخوف يملؤنا من أن تحدث ردة عنها على يد حاكم يأتى.. أنت تضرم النار دائما لتغلى المواطنة فيك وانتماءك.. ونحن نرشدها ونطفئها أحيانا لنحيا ونضحك ونمرح مثل كل الناس.

هكذا وضعه على أول الطريق.. ولأنه مواطن فوق الحد فقد كان آخر يوم .. ترى آخر يوم فى ح[illegible]ن أم المواطنه فيه؟

النـاشـر

مصلح محمــد



آخر يوم فى حياة مواطن



دار النشــر هاتــييه

غـــلاف / محمــد رجـــائي
رســــــم / مجـدي فـرجـانـي
اخـراج فنى / أحمد محجـوب

دار النشر هاتييه

المركز الرئيسى : ١٠ شـارع أبى إمـامـه - الدقـى - القاهـرة .
المكـتبات: القاهـــرة -٢٠ شـارع الـثورة - المـهندسـين .
: الاسكندرية -٢٠ شارع كلية الطب - محطة الرمل .

إهـــداء

إلـــى صـــديقة العمـــر
شريكة الرحلـــة
فـاطمة شـــعبان

مصلح محمد

مقدمة

في هذا الكتاب مجموعة من أعز كتاباتى إلى قلبى، فهى فى كثير منها صاحبة فضل علىّ وعلى قلمى، وليس فى ذلك أية غرابة، فنحن نصنع أعمالنا وتعود هى بدورها لتصنعنا، وصنعتها فينا تمثل المكانة التى تفسحها لنا فى خواطر الآخرين، فعمل قد يمر على الناس مرزور الكرام ومايبقى له من أثر، وعمل آخر يرسخ ويتفاعل معه الناس ويجلب الآراء ومعها النقد سواء كان بالسلب أو الإيجاب، المهم أنه يلقى قدرا من الاهتمام فيبقى اسم صاحبه فى ذاكرة قارئه ويألفه..

وطبيعتى أن أكتب متأثرا بقضية ما.. لابد عندى من قضية حقيقية تلمس وجدانى وتستثير عقلى ورغبتى لأكتب، حتى علاقتى بالخيال لاتخرج عن التفانى فى تطويع الخيال لخدمة قضية ما تفاعلت معها، وقد أسترسل فى حبك العمل والشك يساورنى فى أن يجد طريقه للنشر بالصحف والمجلات، غير أن قناعتى بالقضية موضع التناول تفلح دائما فى أن تصرف ذلك الشك عنى حتى أنتهى من العمل وتبدأ معاناتى فى تخير النافذة التى أجعله يطل منها، ومن هنا يظل العمل الذى لم يجد طريقه للنشر كصرخة مكتومة فى صدرى!..

ويحضرنى هنا مثال.. فذات مرة تجمّع فى درج مكتبى أربعة أعمال كنت قد مررتها على بعض الصحف والمجلات ولم تجد عندهم فرصة

للنشر، إذ تتناول قضايا قومية وسياسية داخلية.. كان ذلك فى أوائل عام ١٩٨٦ ، ومجلة حواء التى أداوم على نشر معظم أعمالى بها لاتناسبها مثل هذه النوعية من الأعمال، وظلت قناعتى بالأعمال الأربعة تعذبنى، وفى يوم كنت أطالع مجلة «روز اليوسف» فتعجبت من أمر نفسى، إذ كيف عرضت هذه الأعمال على معظم الصحف والمجلات ولم يخطر ببالى أن أتقدم بها لمجلة «روز اليوسف» ؟!.. ذهبت بفهم أن «روز اليوسف» من أجرأ الصحف والمجلات القومية، ولم أكن أعلم من يكون الأستاذ المسئول عن الأدب بالمجلة، فتوجهت مباشرة إلى مكتب رئيس التحرير الأستاذ محمود التهامى.. قدمت للرجل الأعمال الأربعة فوعدنى أن يبدى فيها رأيا بعد أسبوع، ثم من قبيل الاحتياط لمشاغل الرجل كمسئول آثرت أن أؤجل زيارتى التالية لمكتبه أسبوعا فوق الأسبوع.. وكانت المفاجأة أن أجد إحدى هذه القصص منشورة «بروز اليوسف» بعد حوالى عشرة أيام من زيارتى الأولى للأستاذ محمود التهامى.. كانت قصة «دعوة شخصية».. قصة تتناول علاقاتنا العربية وأزمات الإنسان العربى وفيها ذلك الخيال المتفانى فى تطويعه لخدمة القضية.. ذهبت لأعرب عن امتنانى للرجل فى أعقاب نشر «دعوة شخصية» وهناك لقيتنى السكرتيرة دهشة من أن أكون أنا، ،وكانت ترانى لأول مرة ـ مصلح محمد صاحب قصة دعوة شخصية التى استرعت انتباه كثيرين من الأخوة فى المجلة.. وظل «أمين عبدالمعطى»

بطل هذه القصة يحادثنى عنه كثيرون! الذين أعجبوا به قبل أن يتعرفوا على شخصى.. ثم وبعد فترة قصيرة نشرت روزاليوسف العمل الثانى من الأربعة أعمال وكان «بائع الأحلام».. وبعد ذلك امتنعت المجلة عن نشر العملين الباقيين.. المهم أننى تحريت عن سبب هذا الامتناع فوصلت بى إستفساراتى إلى مكتب المسئول عن الأدب وماكنت أعرفه قبل ذلك ـ وهذا لجهل منى إذ أنه أديب وكاتب معروف ـ فوجدت العملين قد استقرا بمكتبه، ولم يكن اللقاء على ما أذكر وديا، إذ كان علىّ أن أتقبل إصراره على رفض نشر أى من العملين الباقيين جزاءً لكون قصتاى قد وصلتاه عن طريق مكتب رئيس التحرير!.. ومن هنا فقدت بعض أعمالى نافذة جيدة تطل منها ربما لعدة سنوات قادمة.. وبقيت حتى الآن أرجع حظ «دعوة شخصية» و«بائع الأحلام» فى روز اليوسف إلى تفهم رئيس التحرير ككاتب سياسى للعملين وهو أمر ربما واكبه غياب الأستاذ المسئول عن الأدب بالمجلة بسبب كالأجازة مثلا!.. وظل العملان الآخران بدرج مكتبى حتى الآن لم يحظيا بفرصة للنشر!..

ومن مثل ذلك كثير يصادف الأدباء الشبان على وجه التحديد، ولذلك قد ظل لفظ الأدباء الشبان يطلق على أدباء قاربوا الخمسين من أعمارهم وكأن مصر الولود قد حددت نسلها من الأدباء بعدهم.. وكان ـ على حد ماطالعنا ـ الدكتور يوسف إدريس أديبا مشهورا من قبل أن يبلغ الثلاثين..

ولنضم إلى ذلك الكثير الذى يصادفنا، غياب حركة نقدية حقيقية عن الساحة الأدبية، وحتى الأدباء القدوة أحد منهم لايلتفت أو يتوقف عند عمل يقدم إليه بالرأى أو التوجيه..

أذكر مرة وكانت قد صدرت أول مجموعة لى وهى «بائع الأحلام».. وأول من سعيت لإهداء مجموعتى إليه الأستاذ يوسف إدريس.. فى مكتبه بجريدة الأهرام، تركت كتابى وظللت أحلم بأن يتناوله بكلمة ولو موجزة، فمثل كلمة منه عند أديب شاب شيء كثير.. أليس هو يوسف إدريس فارس القصة القصيرة الذى قد أكون فى الباطن عندى هويتها ـ القصة القصيرة ـ وسهرت لكتابتها من حب فى كتاباته وبحث منها؟! طال انتظارى ومع ذلك أصررت على أن أقرأ أو أسمع منه شيئا...

وكان للمفكر الإسلامى الكبير الأستاذ خالد محمد خالد فضل إعادة تقديمى للأستاذ يوسف إدريس، وكنت قد رجوته فى ذلك، ففى يوم من أواخر فبراير ١٩٨٦ توجهت بموعد أنجزه لى الأستاذ خالد إلى مكتب الدكتور يوسف إدريس الساعة الواحدة ظهرا وكنت أرتدى بدلة شتوية زرقاء كاملة، فى حين وجدت دكتور يوسف إدريس مرتديا بدلة سفارى بيضاء «نصف كم» من قبل أن يسحب الشتاء ذيله تماما!!..

قدمت نسخة أخرى من كتابى للأستاذ يوسف إدريس وأنا أتصبب عرقا من حرارة مكتب السكرتير وملابسى الشتوية، وانصرفت..



أما لماذا أعرض هنا لمسألة البدلة الشتوية؟ فلأن لذلك عندى سبب.. فقد مرت الشهور ولم يتحقق شيء من حلمى.. ولتجيىء فرصة ألتقيه فيها فى شهر رمضان ومأدبة إفطار دعا إليها الأستاذ خالد محمد خالد عددا محدودا من رجال الفكر والأدب.. فرصة لمثلى أن يستمع لحوارات هؤلاء الأعلام .. ومع سعادتى من المناسبة وجدت الأستاذ يوسف يؤكد لى ـ على مسمع من الحاضرين ـ أنه مازال يذكرنى «ألست أنت الذى زرتنى بمكتبى مرتديا البدلة كاملة؟» .. ذلك فحسب الذى يذكره منى أستاذنا!.. والكتاب.. الكتاب.. القصص؟! لاشيء..

وكما ذكرت فى البداية، أننا نصنع أعمالنا وتعود هى بدورها لتصنعنا، فأنا أرى ذلك يسهم ـ بالضرورة ـ فى تحقيقه هؤلاء الأساتذة الذين يفسحون المجال لأعمال الأجيال التالية فيضمون بذلك من فضلهم إلى فضل العمل على صاحبه، بل لولا لياقتهم النفسية وحضورهم المتحضر لما ظهر كثير من الأعمال الجيدة ولا بان لها فضل على أصحابها.. فبقدر مايصدم المرء منترديات ونزعات نرجسية ومشاكسات، بقدر مايصادف ويلاقى من أفاضل يطيبون قلبه ويعطون الانطلاقة.. فيالسعة صدر وأفق الشاعر الفنان «فاروق جويدة» ..

فى بداياتى كانت تأسرنى الفكرة وأتفاعل مع القضية تفاعلا يفرض على العمل غموضا غريبا، أو يسطحه فيتلف قالبه أو محتواه ولا أرى

ذلك، إذ تستغرقنى قضية لايراها فى عملى أحد غيرى! ذلك غير لهفة الناشئ على نشر عمل له بالجريدة، فيخرج من تحت يدى عمل يصلح، وآخر يليه لايصلح للنشر.. مرحلة مهمة أكسبتنى الكثير من الثقة بفضل شاعرنا المهذب.. وفى مرحلة أخرى.. مرحلة أشبه بالإشراف على طور النضج الأدبى كان هناك أفاضل آخرون يمنحون الثقة ويعطون الطريق ويفسحون المجال.. إذ كان ما أحسسته احتضانا من الكاتب المثقف الأستاذ أحمد زكى عبدالحليم أستمد منه مزيدا من الثقة لما يشعرنى بأننى على الطريق الذى يرتضيه لى محسوبا مع الواعدين، حتى أن تقديمه لكتابى الأول، وكان التقديم فى حقيقته دراسة تحليلية لكتاباتى أحسست فيها وكأنه يلمس كل خاطرة فى رأسى وأدق نسيج فى نفسى، وتعرفت ـ منه ـ لأول مرة على خصائص أسلوبى وواقع إمكاناتى.. وللآن مازال يغدق من فضله ويدعم الصبر والمثابرة عندى بوعى رجل يحب أن يقدم لمصر كل ماتستطيع يداه من خير.. و

يا لذلك التفهم الذى يثلج صدر أديب لما يجىء من كاتبة أديبة مثل السيدة «سعاد حلمى».. بغير ماتقول كأنى سمعتها «لانحجب فرصة عن عمل جيد.. كلما أبدعت أعطيناك مزيدا من الفرص»، من هنا كانت إجاباتى لكل من يسأل:

«أى ود الذى نراه بينك وبين مجلة حواء؟.. أقول: إنها أنسب مناخ

وجدته.. احترام، لانزعات نرجسية ولا مشاكسات.. تختلف عن أماكن أخرى.. هي أشبه بدكاكين مقفلة أبوابها على أقلام بعينها يربطها توافق مخصوص أو انتماءات مذهبية سياسية» ..

مرة تقدمت لرئيس تحرير إحدى المجلات بقصة، وكانت محاولة لبدء تعاون معهم.. بعد فترة كان بيننا حديث تليفونى فدعانى لزيارته بمكتبه.. عن الأسلوب والبنيان، قال الأستاذ: إنه يذكره بأحد أعلام الأدب.. ثم جاء فى موقع من القصة وشرع فى أن يلقننى درسا فى الناصرية، حتى أن أهم ما أكد عليه الأستاذ هو «إن هذه المجلة قد جعلت أصلا لعبد الناصر وأمجاد عبد الناصر وستظل هكذا إلى الأبد» !.. وكان الموقف يسقط على تغييب إرادات الشعوب عن بعض اختيارات هى من حقوقها الأساسية ولا أعنى به عبدالناصر وحده، لكنه قصر الموقف على عبدالناصر..

رحت أحاول: يا أستاذنا، حتى لو كان عبدالناصر الذى أحبه.. فهذا رأى فى جزئية تقابلها إنجازات كثيرة عظيمة فى حياة أكثر من نظام سياسى أعنيه.. ثم.. من حق غيركم أن يقول رأيه، ولمن يغار على معتقده أن يفند دفوعه فى مواجهة هذا الرأى، خاصة وقد بدأنا مرحلة فتح النظام فيها الأبواب على الديمقراطية.. لم يقنع رئيس التحرير بل تكلف النصح لى قائلا: «يمكنك الذهاب بهذه القصة إلى المخرج (......) وأؤكد لك أنه سيتحفظ عليك بمكتبه طالبا منك أن تكتب له كل يوم قصة مثلها



ليصنع منها فيلما سينمائيا، وفى هذه الحالة أتوقع لك أن تكون من أصحاب الأرانب ـ يقصد مليونيرا ـ فى فترة قصيرة» !

هذا بعض من حال الأدب والأدباء.. حتى أننى كثيرا ما أسائل نفسى: بعد الدكتور يوسف إدريس ـ مثلا ـ مَنْ الأدباء نال نصف حظه من الذيوع فى مجال القصة القصيرة؟!..

حقيقة هناك أسماء على الساحة لكنها بالكاد معروفة!.. لابد وأن هناك أسبابا كثيرة هى ذات الأسباب التى أفقدتنا الصدارة فى مجالات كثيرة وسحبت البساط من تحت أقدام مبدعينا.. لكن.. على أية حال نحن لانملك غير أن نحاول سحب البساط من جديد.

مصلح محمد



ست الحسن



استبد الضيق بـ «ست الحسن» .. نفس الأصوات.. الصراع المتواصل بين الأبناء.. ظلام النفوس.. الفقر.. الجوع.. الاستدانة.. عزمت على شيء.. انحنت.. مدت يدها نحو طرف ثوبها.. وجدته مبللا بدموعها .. لململته.. انسحبت خارجة فى هدوء.. تعرف طريقها إليه.. النيل.. هناك تخيرت موقعا لقفزتها.. همت بإلقاء نفسها.. استوقفها صوت رعدى:

ـ ست الحسن.. لا ياست الحسن!

.. دهشت!.. فمن ذا الذى بقى لها.. يذكرها.. تهمه!! راحت تتلفت حولها.. تنظر فى السماء فوقها.. فى النيل أمامها.. لا أحد.. لاشيء بالمرة!! لعلها بقية حرص منها على الحياة اصطنعت الهاتف ليؤخرها فيفتر عزمها على الانتحار وتجبن.. لكن أى حياة تلك التى تحرص عليها؟.. أحصوة حب لها تعطل جبل كره فيها؟.. لا .. ألف لا .. عادت تحاول أن تستفز خاطرها المجروح لتصل به إلى نقطة تتساوى عندها الأمور فتهون الدنيا وتزهد هى البقاء لتلقى بجسدها فى النيل.. تقتل معاناتها فى الغرق.. لكن نفس الصوت استوقفها:

ـ لا ياست الحسن.. موتك على هذا النحو فضيحة وعار على ذويك.. أنت.. أنت؟!.. جمال الدنيا من جمالك.. سر الوجود فى وجودك.. مازال هناك من يعيشون بك ولك.. مهما كانت الأسباب



فأنت أقوى منها.. كل الفاتنات محسودات.. بعض الحاقدات لايكتفين بالحسد.. يرتحن لفضيحة فاتنة.. لكسر خاطرها.. لجور عشاقها عليها.. ويوم المنى عندهن يوم تحتويك مياه النيل وتلتهم جسدك المرمرى كائناته!..

.. انهارت ست الحسن.. بكت بحرقة.. كأن دموعها السيل يصب فى النيل.. أحست برغبة فى أن تقول شيئا.. تتلفت حولها من جديد فلم تستدل على مصدر الصوت.. لكنها ماعادت تستطيع أن تمنع نفسها عن أن تقول.. نفد صبرها فتحدثت بأعلى صوتها:

ـ أيها الوازع.. يكفينى منك حرصك علىّ فى زمن افتقدت فيه من يهتمون بأمرى و.. أنا .. أنا التى كنت قد سكنت القلوب وخلبت العقول وحملت فوق الرؤوس بخاطر أصحابها.. أتعرفنى جيدا؟.. أنا.. عزيز قوم ذل.. مسحورة منذ مولدى شابة تبقى.. بكر حتى اللحظة رغم أننى عشقت وعشقت كثيرا.. ومع ذلك فأنا ولود زحمت قصرى بأبنائى.. فعشق مثلى زواج حلال أجامع فيه نفسى.. وعشيقى.. عشيقى يكون من أبنائى يختارنى وماهو إلا راع يسهر علىّ وبقية أبنائى.. فمرامه رضائى ومبلغ سعادته أن يرانى فى أبهتى أحلى الأمهات.. عشت زمنا طويلا مرفهة.. عشاقى.. أبنائى.. يتفانون فى خدمتى.. لا هم ولا كدر.. فمن تلك التى تحزن وعشاقها أبناؤها

رموز الصبر والجلد والقوة فى تحضر؟.. سباقون.. قصرها يزخر بالخيرات تمن ببعضها على الخدم والجارات.. معززة.. مكرمة.. مصاغى فى صوان لايمسه عشيق.. أو ابن إلا ليضيف.. ألا يسعد ذلك كل أم.. أى أم؟ أعرفتنى؟

أجاب الوازع بصوته الرعدى:

ـ أعرفك يامليكتى وماكنت بحاجة لتذكرة.. لكنى أستعذب صوتك ولا أمل سيرتك.. بل ومازلت فى شوق لسماع المزيد.. فمنك لايكون غير الصدق.. أصدقك الآن أكثر من عينى التى رأت..

.. استطردت ست الحسن.. أتقول موتى.. انتحارى.. فضيحة وعار على ذوىّ؟ فما بالك لو قلت لك إننى أعيش الموت منذ سنين.. الهم والكدر.. صرت اسما على غير مسمى.. فارغا من المعشوقة المنعمة.. لاست ولا حسن.. قل الخير ياوازع فعشاقى انصرفوا عنى وعن خدمتى.. فرغوا من الصبر والجلد والقوة فى تحضر وكأنهم زهدوا فى الرقى والاستباق.. خلت قلوبهم من ذرة حب لمليكتهم.. عشش العنكبوت فى أركان القصر.. تشققت الجدران.. كلح لونها الوردى.. كل صنع من ذاته قصرا يخصه وغلق بابه على مشتهياته.. انفرطوا وكأنهم أبناء سفاح أو ليسوا لأم واحدة.. امتدت أياديهم لصوانى تختلس مصاغى فى غير استحياء.. ذبلت الورود فى

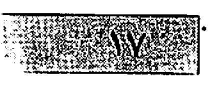
حديقتى.. سكنها الغربان.. القصر فى عصر الفقر استدان.. ومن مَنْ؟!.. من أولئك الذين يغررون بى ويودون لو أصبح داعرة لاجاه لى ولا صولجان..! وأبنائى.. عشاقى لاغيرة تأخذهم ولاعهد كأنه بيننا كان..

توقفت ست الحسن عن الكلام.. كأنها تحاول ترتيب أفكارها وهى المضطربة تحت وطأة ما ألمّ بها.. سمعت نهنهة رعدية.. الوازع مصدرها.. يبكى بحرقة... سألته:

ـ أتبكى ياوازع؟

.. أجابها:

ـ معذرة مليكتى.. حضرتنى عبارتك.. عزيز قوم ذل.. ما أصعب أن يهان الكرام.. أن يتحول الحب كل الحب إلى الأنانية.. منتهى الأنانية.. وحب من؟.. حب الحب.. حب الأم؟!.. أن تترك الأم فى عنفوان شبابها مشتهاة للغير ولا غيرة فى قلب ولد!.. أن يغمض العشاق.. الأبناء عيونهم عن سقوطها إذا حدث.. أن يتحول الواحد إلى ملايين تتصارع.. أن تصبح الفرحة والتيه بالأبناء حسرة عليهم تحرق قلب الأم.. ماذا أقول؟.. دعينى أبكى.. لكن لاتحسبى بكائى يحول دون أن أتابع المسيرة.. بودى لو أشاطرك أسفك.. همك.. كدرك.. بودى لو تطول يداى يدك فأضمها وأقبلها.. كتفك أربت



عليه برفق.. رأسك أمسح عليه وأطبع قبلة فيها روحى المحبة..

وراحت ست الحسن تكمل:

ـ دمت لى ياوازع.. يا وفى وقت ندر الوفاء.. يا أصيل فى زمن التوهة.. آه.. تذكرت.. منذ متى.. منذ صار القصر ذاته مطمعا.. سيطرت على الأبناء شهوة السلطة والامتلاك.. وأى شهوة ياوازع وقتية تخمدها ممارسة ترضيها إلا شهوة السلطة والامتلاك.. شهوة تستأثر بصاحبها فلا تقنع ولاترضى.. من وقتها صرت حجة الغالب والمغلوب فيهم.. محض حجة.. كل الصراع من أجل ست الحسن.. وست الحسن ليست على الخاطر ولاضمن الحسابات!.. وبعد أن كان الحب مذهبهم تعددت المذاهب والتوجهات.. فمنهم من شغلوا يمين القصر.. ومنهم من أقاموا فى يساره.. ومن استقروا ببهوه المتوسط.. ومن تطرفوا وراء كتاب الرب.. وهكذا تمضى بى الأيام.. يوم القصر فى حوزة أهل اليسار.. ويوم يأتمر بأمر شاغلى اليمين.. وأيام زمام أموره فى يد من افترشوا بهوه.. هتاف.. صراخ.. صراعات تصل إلى حد الاقتتال.. وجميعهم بالقصر على مر الأيام يزحفون نحو الفقر والاستدانة.. أتوسطهم.. ألطم وجهى بكفى.. أصرخ فيهم.. أفتش فى صدورهم عن ضمائرهم فلا أجد غير خواء ترن فيه «الأنا» فتحدث دويا رهيبا.. أدعوهم: دعوكم من يمينكم ويساركم وكونوا

أبناء لست الحسن فحسب.. الأجيال من قبلكم كانوا.. كنت أنا قضيتهم.. بح صوتى ومللت أستعطفهم.. ضقت بهم.. انتظرت أن يجود الزمان بعاشق يضطلع بدور الأب فيبصر أبنائى ويجمعهم وتجمعنا مائدة واحدة من جديد.. طال انتظارى.. مللت الانتظار.. الزمن يضن علىّ بعاشق.. الأبناء ماعادوا يخلصون الود.. لمن أعيش إذن؟.. ماذا أنتظر؟ أأنتظر حتى يتهدم القصر فوق رأسى؟.. لا .. بالله عليك ياوازع دعنى ألقى بنفسى فى النهر.. أذهب من وجوههم بلا عودة.. لاتمنعنى هذه المرة..

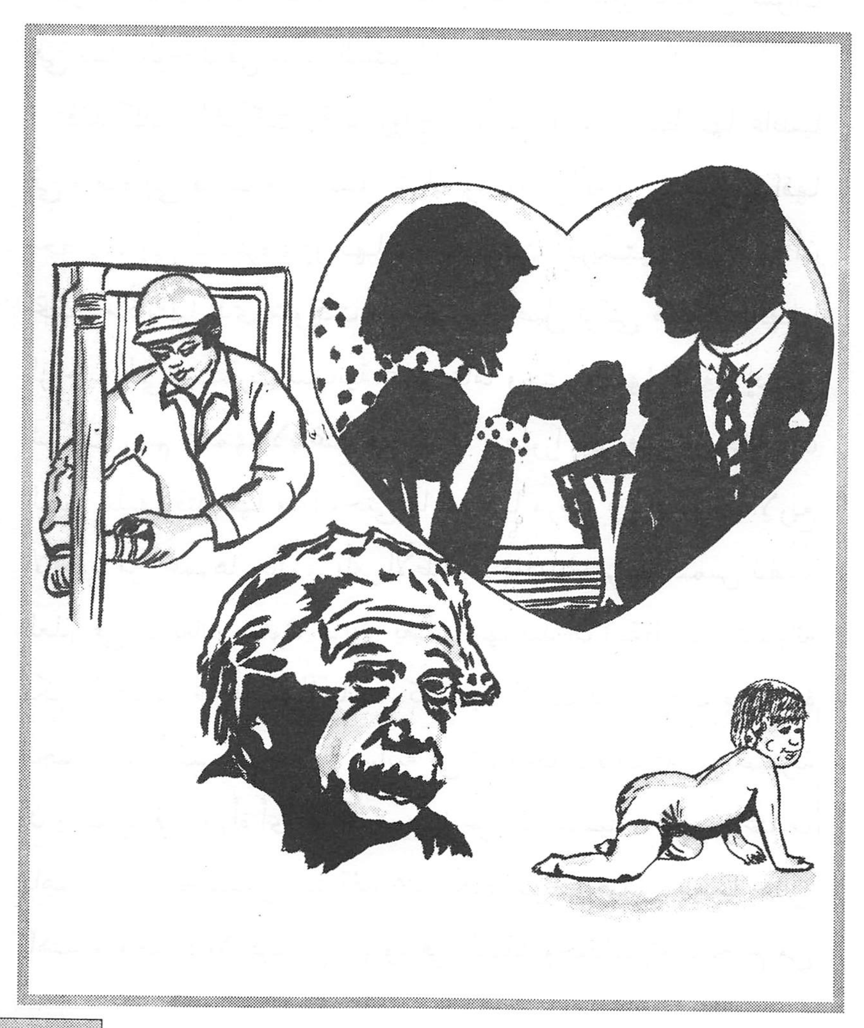
وهمت ست الحسن تلقى بنفسها.. صوت الوازع يزلزل الدنيا:

ـ لاياست الحسن.. لا ياأصيلة.. انتظرى فهناك نبوءة مؤكدة.. أبشرى.. فالعاشق الأب موعودة أنت به ومرصود هو عليك.. سيأتيك.. سيلقاك.. يده غير يدى المخفية.. ستطول وجهك الجميل.. يجفف دموعك.. يربت على كتفك.. يقبل يدك.. يجمع الأبناء.. كل الأبناء.. يحى الضمير فى صدورهم يكمل مابدأه بعض عشاقك المخلصين.. يسد دينك.. يفلح حديقتك.. يرم الشقوق فى حوائط قصرك.. يملؤه والأبناء بالخير.. هو .. هو لافارس ولامغوار لكنه بئر عقل بلا قرار.. شفاف يكشف الكذب فى من كذب.. يجاب له من قبل أن يقول.. و.. و..

وأخذ الصوت يخفت.. يتلاشى.. وست الحسن تسترق السمع حتى غاب الصوت تماما.. تتلفت فى كل اتجاه.. لا أثر لشيء.. تنادى بأعلى صوتها: ياوازع.. ياصوت.. أين أنت؟.. ألن تعود؟.. وما من مجيب.. صدى صوتها فحسب.. تواصل:

ـ أظنك موجود لكن شيئا ما يحجب صوتك عنى.. لعل صوتى يصلك.. سأبقى هنا فى مكانى.. عند النيل.. لن أعود لقصرى قبل أن يأتى العاشق الأب أو يتنبه الأبناء من غفلتهم.. سأنتظر هنا وعينى على الطريق.. على القصر.. عليهم.. ربما جاء وعدت معه.. وربما حضروا هم ليسترضوننى.. لن أعود معهم.. لن أضعف أمام حبى لهم.. سأقولها وأصر عليها: اذهبوا وحدكم.. وهناك فى القصر اعملوا.. أعيدوا الحديقة لسابق عهدها.. رمموا الحوائط وسدوا الشقوق.. أحبوا اللون الوردى.. اعملوا.. اعملوا.. سددوا الدين.. أعيدوا مصاغى إلى صوانى.. التحموا.. اندمجوا.. انتشروا فى أرجاء القصر.. مذهبنا الحب.. الحب من قديم الأزل.. سأنتظر هنا لحين تفعلوا.. نعم.. فإن ذهبوا وغابوا عنى بقيت فى انتظار العاشق الأب.. وإذا عادوا فتشت فى صدورهم فإن وجدت خواء ترن فيه «الأنا» أصررت على البقاء.. ولاتخشى من كونى قرب النيل.. لن انتحر مادامت نبوءتك مؤكدة.. قادم هو وسنلتقى.. عاشقى.

التركـــــة



مات شوكت الأرناؤوطى وكان على مشارف العام الستين من عمره.. خلّف وراءه امرأة تعد شابة، وطفلة لم تجاوز الخمس سنوات هى نسله الوحيد فى سنينه الستين!..

فقد كانت لشوكت تجربتا زواج.. الأولى فرنسية ارتبط بها عاطفيا فى سفرة إلى فرنسا فى مقتبل شبابه ولما أحس أنه لن يتحمل فراقها أحضرها إلى القاهرة وتزوجها.. واستطاعت كريستينا الفرنسية أن تحفظ مكانتها لدى شوكت المنحدر من أصل تركى طيلة حياتهما الزوجية التى استمرت لثمانية عشر عاما وحتى وافتها المنية.. إذ ظل شوكت رغم عقمها لايرغب فى غيرها متصورا فيها فسوخة حظه وأن الجور عليها قتل لها وله! وحتى لما ألم بها مرض فى السنوات الأربع الأخيرة من عمرها حال ـ بأمر الأطباء ـ دون معاشرتها التمس لنفسه العذر فى أن يعالج شئون غريزته بعيدا عنها بيد أن أسقط من اعتباراته فكرة الاقتران بغيرها.. ولما ماتت كريستينا كانت قد تأصلت فيه عادة الجمع بين أكثر من علاقة نسائية فى آن واحد بالإضافة إلى صعوبة أن يتصور فى امرأة أى امرأة عوضا عن كريستينا.. لكن.. عندما داهمه عامه الخمسين استوقفه عند فكرة كونه وحيدا.. مهما حظى باهتمام وحفاوة الآخرين فإنه يعود فى النهاية وحيدا.. إنه سيخرج من

الدنيا دون أن يترك أثرا يذكر.. ابناً يحمل اسمه وتؤول له ممتلكاته.. أكبر مصنع لمنتجات الخزف والصينى وفيللته الضخمة.. و.. و.. قرر أن يتزوج وكانت «سارة» زوجته الثانية بكرا فى الخامسة والثلاثين.. لسبب لايعلمه إلا الله لم يتقدم أحد للزواج منها رغم كونها من عائلة رفيعة المقام وتمتعها بمواصفات جمالية متفوقة!.. وبالرغم من أن فارق السن بينها وبين شوكت كان محض خمسة عشر عاما إلا أنها التمست فى هذا الفارق وكونها بكرا لم يسبق لها الزواج مدعاة للتدله وتقمص مشاعر وأطوار ابنة العشرين.. وصدق شوكت أن القدر أتحفه بصبية لها العذر فى عصبيتها واستبدادها فانصاع لرغبتها وخولها حريات لاتحدها حدود..

ولو أن سارة لم تبد أى ممانعة فى الزواج من شوكت عندما تقدم لها.. إلا أنه لم يكن بالرجل الذى تختاره لنفسها لو أنها كانت فى مرحلة سنية تسمح لها بأن تختار.. أو أن هناك أكثر من راغب فى الزواج منها تفاضل بينهم.. كان الوحيد الذى تقدم.. وكان لزاما عليها أن تقبل وإلا فوتت فرصة لاتتكرر!.. لذا فإن الزواج قد أزاح عن خاطرها حسرة فوات قطارها وهم عنوستها.. كأن الزواج واجب حياتى ثقيل فرغت لتوها من أدائه وعلى الحياة أن تمنحها ماترغبه من

الآن..

في النادى انبهرت بـ«شوقى كمال الدين» عميد متقاعد من الجيش، ذاع صيته لما ألف كتابا عن الحروب التى شارك فيها.. وكان العميد شوقى مهيئا لأن يبادلها انبهارها.. ثم الحب.. إذ دارت به دنياه دورة سريعة كالحلم لتصدمه بواقع يحبطه.. فى بداية دورته التحق بالحربية.. بصعوبة قبلته.. مناسبة جمعته بـ«فوزية» ابنة باشا قديم.. لم تكن ذات مواصفات جمالية توافقه.. تعلقت به بقدر تعلقه هو بكونها سليلة عائلة كبيرة ثرية.. رفضه الباشا.. قبلت الحربية ابن الحلاق ليرفضه الباشا ضابطا!

تحدت فوزية.. تزوجت شوقى على أمل أن يرضخ الباشا.. لكن.. الباشا ماعاد يقبل فرض أمر واقع على إرادته.. قاطع ابنته طيلة حياته.. مات.. استبعدها من وصيته ليخرج شوقى من الزيجة بامرأة ما رغبها لذاتها يوما.. وابنتين وولد منها.. وجاء قرار الجيش بإحالته للتقاعد ليقوض مابقى له من آمال.. طالما ساورته الأمانى فى أن يواصل.. لواء.. فريقا.. وزيرا.. وربما منصب أعلى..

بعد حملين فاشلين أرجع الأطباء فشلهما لكون زواجها جاء فى سن متقدمة أنجبت سارة بنتا.. كانت قد أيقنت أن الإنجاب ولو مرة

واحدة واجب حياتى لايقل عن واجب الزواج الثقيل.. إلا أن شوكت لم يقنع ببنت.. ظل واجبها فى منظوره منقوصا يلح فى طلب إكماله.. الولد.. وسارة تتملص.. صحتى.. لياقتى.. شبابى.. ولسان حالها يزكى مقتها لفكرة الحمل والإنجاب التى ألزمتها الرقاد لفترات ذاقت فيها مر البعاد عن شوقى كمال الدين والنادى وانطلاقاتها الشابة!

وبقى إلحاح شوكت أضعف من أن يثنى زوجته الجميلة المدللة عن إصرارها إلى أن مات وخمد إلحاحه فى صدره.

أثبتت الأيام أن شوقى كمال الدين رجل الحروب الجسور شىء، وشوقى كمال الدين بين المدنيين فى الإطار الاجتماعى والعلاقات شىء آخر مختلف.. على الأقل فى نظر سارة فشوقى لم يخف عنها حلمه ـ يوم اشتد به وجده ـ فى أن تدور عجلة الموت فتقلع كل مايعترض سبيله إليها.. حلمه فى أن يضع رأسه فوق صدرها زوجة!.. بدا بعد مضى فترة على وفاة شوكت وكأن أحلامه هذه ماعادت تراوده!.. بينما ظل الحلم بالزواج منه يراود سارة التى لم تجد فى واقعهما الجديد مايمنعه أو يعترض سبيله إليها!

مات شوكت ولا أحد ينازعها فى تركته.. وهو.. شوقى لم يكن

محبا ـ على حد قوله ـ لزوجته يوما.. كذا فالرجال يتزوجون إذا أحبوا أكثر من امرأة.. اتخذت من الثناء على مجهوداته ومساعدته لها منذ توفى زوجها مدخلا.. انبرى يصف كيف ملكت عليه فؤاده.. تسرى فى دمه.. استعداده للمزيد والمزيد تحت مظلة أعظم حب عرفه قلبه.. الحب الذى يكاد يجزم بأنه الحب الأول والحقيقى فى حياته!.. يسوق حلمه القديم كما لو أن شيئا لم يتغير بوفاة شوكت: لو أن عجلة الموت تدور فتقتلع كل مايعترض سبيله إليها!.. ينطقها بحرقة وكأن فوزية ـ وهى المانع الوحيد الباقى ـ حصن حصين ليس هو بأى حال الذى يجازف ويتخطاه! أحست سارة كم لهذه «الفوزية» من مهابة فرضتها واقعا فى حياة شوقى يستعصى التقرير فى شأنه على غير القادر وحده!.. عادت على نفسها باللوم.. فهى التى فوتت على حبها فرصة أن يرقى لمستوى يستأهل تضحية شوقى من أجله.. لم تدع لنفسها مساحة لمناورة تشعل فى ميله نحوها نارا تحرق مهابة فوزية.. أما كانت المبادرة من قبلها؟!

التصريح بالإعجاب.. ثم الحب.. والعطاء منتهى العطاء!.. جعلته كطفل مدلل.. والطفل المدلل فى الغالب لاينقاد.. يتمرد على الواجب ويرفض التضحية.. ليضحى الآخرون من أجل إشباع رغباته..

فكرت لو تعذبه بقطيعة.. استحال كيانها لدبيب مدوٍ قهر فكرتها.. عادت تفكر فيما لو جعلت لنفسها مساحة واسعة لمناورة.. وجدتها.. تقربه أكثر.. تختلق سببا واضحا لرابطة واضحة يقرها الجميع ومن خلالها تصليه نار التأرجح بين منع الحب وعطائه.. ولتكن إدارة المصنع هى الرابطة!..

كان شوقى كمال الدين يتحين إجابة إحدى المؤسسات على رغبته فى العمل مديرا لأمنها.. كلما استبد به قلق الانتظار عاودته مرارة لطمتيه اللتين تلقاهما متعاقبتين.. لطمة وصية الباشا التى استبعدت منها زوجته فوزية وكان بطبيعته يقبل أن ينعم برخاء يوفره نصيب زوجته فى تركة أبيها الكبيرة.. هذا إن لم يكن عايش بالفعل حلما متواصلا فى أن يستثمر ذلك المال فى مشروع ضخم يؤول له فى النهاية دون أن يمثل ذلك سقطة فى كبريائه ولاغفوة من ضميره.. فكل باشاوات العصر البائد فى مفهومه لصوص امتصوا دماء الشعب وتسيدوا عليه!. وربما.. كانوا هم الذين احتالوا على مستقبل أبيه ليخرج فى النهاية محض حلاق يحرمه قبول الباشا اللص!!.. ورغم شدة هذه اللطمة.. لطمة وصية الباشا.. امتلك أسباب الصبر عليها.. ووظيفته كعميد فى الجيش.. الأمل فى مستقبل عريض..

لواء.. فريق.. وزير.. وربما منصب أعلى يستطيع من خلاله أن يبرهن لروح الباشا ولكل من عاصروا اضطهاده لابن الحلاق وحتى زوجته نفسها أنه هو الباشا الفعلى!! لذا كانت لطمة استبعاده من الجيش أشد وأوقع.. لاجاه ولامال؟!.. محض كيان ضئيل سليل الطبقة العاملة وخدام المجتمع تنعم وترفه فى عالم البرجوازية البيروقراطية لفترة ثم عاد لقواعده خالى الوفاض!.. فى أشد لحظات الدفع للشره والنهم للمال عرضت عليه سارة فكرة توليه إدارة مصنعها وقَبِلها فى الحال.

وبدأ العميد شوقى فى إدارة المصنع الكبير بعدة تكليفات أهمها تحديث غرفة مكتبه كمدير ليكون مكتبا وثيرا.. وإجراء تغيير جذرى فى نظام أمن المصنع خوله حق تعيين أفراد أمن جُددا كانوا فى حقيقة الأمر من مراسلته بالجيش وجنوده ورقبائه.. وبحركة تنقلات داخلية آلت له السيطرة الكاملة على كافة إدارات الإنتاج والمالية بأشخاص ضمن ولاءهم له.. وأخذت حوافز العمال ومنحهم تقل شيئا فشيئا بزعم ارتفاع تكلفة الإنتاج وتعرض الأسواق لنوع من الكساد.. العمال يتهامسون فيما بينهم.. يصل همسهم للعميد شوقى عن طريق عيونه وجواسيسه بينهم.. يرجعون تردى أحوال المصنع لسوء إدارته واجتماع إناس ليسوا فوق مستوى الشبهات حوله..

تتصاعد الأمور.. يتحرك منصور وسط العمال.. يخطب فيهم.. يستنهضهم ويستفزهم على الإدارة.. وكان منصور ممن شملتهم حركة التنقلات الداخلية.. فهو وإن كان قد التحق بالمصنع عاملا بسيطا إلا أن ذكاءه ودأبه على النهوض بمستواه الاجتماعى والثقافى استلفت انتباه المرحوم شوكت الذى نقله من عنابر الإنتاج إلى قسم التسويق فى نفس اليوم الذى انتسب فيه لكلية الحقوق.. ولما استرعى انتباه العميد شوقى أيضا أعاده مرة أخرى لعنابر الإنتاج..

ويواصل منصور مع العمال.. يعذبه خضوعهم.. غضبهم الذى لايستثير غير همسهم.. حديثهم عن مستقبل مفلس فى ظل إدارة العميد شوقى: نهب حوافزنا وبخل بمنحنا، وغدا يخفض من أجورنا.. لاكساد بالأسواق ولا ارتفاع فى تكلفة الإنتاج إنما هى أجور وامتيازات عساكره وجواسيسه..

شوكت كان برجوازيا تقليديا.. أعنى مالكا للمصنع ووسائل الإنتاج من أصله.. ومهما كان بيننا وبينه كعمال فنحن فى النهاية محسوبون عليه بإنتاجنا وبحاجته لسواعدنا..

أما شوقى فبرجوازى بيروقراطى.. أعنى إدارة عقيمة سلطوية تحيا وتتنعم من عرقنا ونهب مالية شوكت وأمثاله.. لن يقف شرهه عند

حدود.. ويوما ما لن نجد لاعرقنا ولامصنع المرحوم شوكت.. لن نجد غير الخراب والجوع .. و .. و.. أصدر شوقى قرارا بفصل العامل منصور.. وواصل منصور لقاءاته بالعمال خارج المصنع وقد عزم على أمر ما بعدما تقدم للمحكمة العمالية بدعوى ضد العميد شوقى..

كانت سارة قد استنفدت كل مابوسعها لتصلية شوقى نار التأرجح بين عطاء الحب ومنعه.. كانت تحار فى إيجاد سبب المنع إذ كان دائما يبدى طواعية إزاءها منذ توليه إدارة المصنع وخضوعا غير أن ذلك لم يرق عنده لمستوى المخاطرة بعبور حاجز فوزية!.. فهو إذا استشعر إقبال سارة على مناورة جديدة كان المنع فى تلطف من عنده حتى يعود بها قلبها المحب معطاءة!.. ذبح كبرياءها مرات ومرات.. أحست ضرورة أن تكون لها مع قلبها وقفة.. تحاول أن تزهد قلبها فيه.. تتحين صداما يقطع وثاق الحب ويشدد من عزمها على أن تلفظه من حياتها.. زارها منصور يوم صدر حكم المحكمة العمالية بإعادته للعمل.. استسمحها فى عرض أوضاع المصنع المتردية فى ظل إدارة العميد شوقى.. مالها وعرق العمال المنهوب بمستندات حصل عليها بمساعدة زملائه.. الإفلاس الموشك عليه المصنع.. استبداد الضيق بالعمال وانسحاب نزعة انتمائهم للمصنع.. غليانهم وثورتهم

الوشيكة التى قد تحطم كل شيء أمامها.. التحريات التى جمعها عن العميد شوقى بمجهوده الفردى.. من يوم أن أدار مصنعها يحيا حياة الباشوات.. يصرف ببذخ على بيته وزوجته.. حلى وسيارة حديثة غالية وبوتيك كبير فى أرقى أحياء المدينة .. و.. و.. حياة الباشوات..

تحفزت سارة لاتخاذ موقف.. اصطحبت منصور فى سيارتها متجهة إلى مصنعها.. وهناك كانت قد اندلعت الثورة على إدارة شوقى وأعوانه.. وشوقى فى مكتبه الوثير يستدعى الشرطة عبر الهاتف، بينما تجمع حراسه عند مدخل الإدارة يمنعونه عن أيدى العمال.. خرج منصور إلى زملائه يناشدهم الهدوء والعودة إلى عنابر الإنتاج.. استجابوا لندائه.. وفى مكتب شوقى أعلنته باستغنائها عن خدماته ومزقت عقود عساكره.. وذهبت إلى العمال تسترضيهم وتقرر تعيين منصور مديرا للمصنع وسط صيحات متفائلة وعيون ذاهلة بفرحة الخلاص من إدارة العميد شوقى.. ودارت عجلة العمل بروح الانتماء من جديد لتجلب الحوافز والمنح للعمال فى ظل إدارة منصور الذى أصر على أن تكون لسارة مهمة إشرافية على الإدارة والإنتاج عادت معها سكينتها لترى فى مصنعها وابنتها كفايتها.. وعاد العميد شوقى كمال الدين ليعد كتابا جديدا عن الحروب التى شارك فيها..

أم الدنيا



لم تكن المرة الأولى فى حياة فاضل.. لكنه أراد أن تكون آخر مرة يعتقل فيها.. ليس لأنه جبن أو أن «أم الدنيا» تضاءلت فى نظره بالحد الذى ماعادت تستأهل معه ضياع عمره بين جدران المعتقلات.. إنما هى حسبة ماكان يدركها عقله الثائر قبل انفراده فى مرة اعتقاله الأخيرة.. استحالة أن يتغير شيء!.. كل القوى المتصارعة أضعف من بعضها.. كلها ابتلعت الطعم.. لتغرق فى أحبار المطابع ومانشيتاتها.. تنفث شحنات غضبها أسبوعيا فلا يبقى فيها من العزم والقوة شيء!.. اختلط اليمين باليسار فى «قربة» تنز عصيرا بلا طعم أو معنى.. الحاكم وحده الأقوى بأدواته.. والشعب.. أخذته من الجميع توهة.. توهة سقف الطموح فيها كسرة خبز!.. أيظل رغم قناعاته هذه كمخبول يصدم رأسه بجدار صلد؟!.. القبضة من فولاذ وماعادت هناك فرصة للشخصيات «السبارتاكوسية».. وزعت الأدوار.. كل ارتضى دوره.. لينسحب إذن.. يتقوقع بقية عمره حتى.. حتى تتلاشى أنفاسه ويذهب.

بلغته أنباء الرحلة العجيبة.. جبن الجميع عن التقدم لها.. انطلاقة تفتقد لمجازف بحياته.. أبرق للمسئول «مستعد للمجازفة».. راح ينتظر إجابة.. يساوره الحلم فى أن يرى أم الدنيا بلد الوصول التى سبقت أم الدنيا بلد القيام بخمسين عاما!.. يكافح الخوف بداخله من رحلة إلى

مجهول: أضعت سنين عمرك تخاطر بحياتك واليوم تخاف؟!.. بوسعك الآن أن تجعل لما بقى من عمرك قيمة.. وليدركك الموت فى المجهول الذاهب أنت إليه.. لاتخف.. لاتهاب.. كن كما ألفت فى نفسك..

وصلوا بفاضل إلى القاعدة حيث تربض المركبة المبتكرة.. إذا ما انطلقت من بلد هبطت على جانب آخر من الدنيا ـ تنبأ بوجوده عالم من علماء أم الدنيا ـ فى بلد هو ذات البلد وقد اختلف فى كونه قد سبق بلد القيام بخمسين عاما.. أى أن كل بلد فى عالمهم يماثله بلد فى الجانب الآخر من الدنيا غير أنه سبقه بخمسين عاما.. و... وانطلقت المركبة بفاضل بعد أن خضع لتدريبات لزوم قيادتها وتسجيل مشاهداته هناك...

بعد عام عادت المركبة وعلى متنها فاضل.. استقبال رسمى وشعبى.. حفاوة بالغة من الحاكم وحاشيته بفاضل.. أنظار العالم اتجهت نحو «أم الدنيا».. أخبار الرحلة تتناقلها وسائل الإعلام المختلفة.. الجميع فى شوق لمعرفة تفاصيل الرحلة.. مشاهدات فاضل هناك.. حال أم الدنيا بعد خمسين عاما.. كيف ستكون؟.. صحوة.. انتكاسة؟.. أزدهار أم أفول؟.. استقر الرأى على اعتبار مشاهدات فاضل هناك من صميم أمن الدولة!.. سيقوم فاضل باستعراض

مشاهداته فى حضرة الحاكم وأعضاء الحكومة بعد أن يقسم الجميع على عدم التفوه بشىء من المعلومات التى جاء بها فاضل من أم الدنيا المستقبل!!..

توسط فاضل الجمع وراح يطرح مشاهداته وتفاصيل رحلته:

«فى الحقيقة لم أتأكد من كونى فى أم الدنيا إلا بعد مشاهدتى للمعالم الثابتة فيها كالآثار وأسماء الأحياء والشوارع.. فسلوك الناس حضارى فوق المتصور فيهم.. المدينة نظيفة تماما.. أحياؤها الفقيرة كأحيائها الغنية.. نظام.. ترابط.. سلام.. انتماء يدهش.. لا أزمة إسكان ولا مرافق ولا صراعات غبية على السلطة.. الجميع متفائلون يعملون فى جد.. فى مانشيتات صحفهم قرأت كيف أن العالم من حولهم انبهر بتجاوزهم لأزماتهم وارتفاع معدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية عندهم فى سنوات قليلة بنسب متفاوتة.. عرفت أنهم يعتمدون أساسا على وفرة الإنتاج الزراعى والصناعات القائمة عليه مستغلين خصوبة أراضيهم.. إيراداتهم خيالية من النشاط السياحى.. يصدرون الأعمال الفنية ذات المستوى الرفيع بعد أن انعكس أثر الأمن الاقتصادى على فكر فنانيهم فراحوا يبدعون ويغزون العالم بإبداعاتهم.. لايستوردون شيئا إلا على سبيل الترضية لبعض الدول الصناعية الكبرى صونا للعلاقات الطيبة معها.. بلد آمن كافة

الصراعات العسكرية بفضل دبلوماسيته المعتدلة وواقعية تناوله للأمور الدولية وقطع خيوط التبعية حتى أصبح وسيطا تفلح وساطته بين كل مختلفين.. ديمقراطية راسخة فوق مستوى ديمقراطيات العالم من حولهم.. أحزاب كثيرة تشارك بالرأى.. تعارض.. تنتقد وتناور للصالح العام.. معارضة مهابة داخل البرلمان.. و.. دائما هناك قضية وطنية تتوحد إزاءها الجهود.. القمح مثلا.. جعلوا منه قضية وطنية تماثل قضية الاستقلال من المستعمر القديم و.. و.. توقف «فاضل» عن الحديث.. جال بنظره فيمن حوله كمن تملكته الحيرة.. ثم.. عاد لحديثه:

أيها السادة.. لقد وقعت فى حيرة.. فكيف أحرز القوم هذا التفوق فى كل ماأعرض وماعجزت عن أن أسجله؟!... كيف؟!.. أصررت على أن أصل لنقطة البدء فى التحول.. وماوجدت هناك رصدا واقعيا لتلك المرحلة.. محض رصد غير منطقى يقول بأن التحول بدأ من عند الحاكم الأسبق لأم الدنيا.. فبعد سنين طويلة من حكم ديكتاتورى مستبد رأى الحاكم الموت بعينيه فعاد من مستشفاه ديمقراطيا فوق الحد!!.. ولاتفصيلات أكثر من ذلك عند أحد منهم!... أخذت أتجول فى الشوارع والطرقات.. أطالع الصحف والمجلات.. و.. ذات يوم قرأت عن ندوة طبية.. حرصت أن أحضرها.. فأنا كما تعلمون

طبيب.. هناك وقف الطبيب الأشهر عندهم يحاضر فى الأطباء من كل جيل.. أكثر من مرة التقت نظراتى بنظراته.. ماكانت لقاءات عابرة.. انتهى من محاضرته.. تخلل الجمع من حوله ساعيا نحوى وكنت بدورى فى طريقى إليه!.. تعرفت عليه.. تبينت أنه أصغر أبنائى الذى مازال هنا فى مرحلة التعليم الأساسى!.. تعاطف معى وتمسك بى.. أخفيت عنه أنى أبوه.. فأنا هناك ميت منذ سنين!!.. قدمت نفسى على أننى طبيب من بلد يجاورهم.. أصر على أن يستضيفنى فترة إقامتى.. وجدتها فرصة.. آمن لى.. أباح لى بسر يكتمه عن غيره.. كان سره هو نفسه السر فى التحول الذى حدث بأم الدنيا وجعلها على النحو الذى قصصت عليكم.. فماذا قال لى: سأقول:

تحول الجمع إلى آذان صاغية وعيون تحملق فى وجه فاضل.. وفاضل كعائد من توهة يهز رأسه ويقول: ستعجبون.. حتما ستعجبون.. فطبيبهم الأشهر الذى هو ولدى الأصغر قال:

منذ أربعين عاما تقريبا كانت الأوضاع فى أم الدنيا قد تردت بشكل ملحوظ.. كنا على عتبات ممارسة ديمقراطية أو.. هكذا خيل لنا.. طال وقوفنا على الدرجة الأولى منها.. قوى المعارضة تنهش فى لحم النظام الحاكم.. والنظام ذاته بدا وقد أفلت الزمام من يده فى ظل أزماته السياسية والاقتصادية.. وعلى المستوى الشعبى غاب الانتماء

تحت وطأة المعاناة وفقدان الثقة فى كل شيء.. الساحة تعج بالتيارات السياسية.. يمين.. يسار.. عقائديين.. استمرت لعبة قتل التواجد بينهم والحزب الحاكم.. أضعفت اليسار.. أنهكت اليمين.. وبقى العقائديون عقدة الممارسة الديمقراطية.. كل التيارات السياسية تتقوى بهم!.. تتهيبهم ديمقراطية الحاكم.. يضطر للارتداد عن حلمه.. فمزيد من الديمقراطية يجعل أم الدنيا فى قبضتهم.. يعود الحاكم ديكتاتورا.. يخالف.. يعتقل.. يزور.. و.. و.. يظهر رجل يناهضه.. يلتف الكثيرون حوله.. يعتنقون فكره وينادون بتطبيقه.. يقلق الحاكم وحاشيته.. اعتقلوا الرجل ليحجبوه عن مؤيديه وتهدأ الأمور بالبلاد ويستتب الأمان.. رد الفعل كاد يؤدى إلى ثورة عارمة مما دفع مستشارى الحاكم إلى اللجوء لحيلة.. أقنعوه بالإفراج عن الرجل فى إطار يحفظ عليه كبرياءه كحاكم.. يذهب إلى محبس الرجل.. يخرج إلى الطريق العام بصحبته وتسجل كاميرات التليفزيون والصحف صورة الحاكم وهو يحاور مناهضه فى الطريق العام كصديقين.. إن ذلك سيطفئ الغليان بصدر الرجل ومؤيديه الذين سيسعدهم بالقطع تواضع الحاكم وإبداؤه نوعا من القناعة بتصورات الرجل فتهدأ الأمور إلى حين البحث فى سبيل للتخلص منه!!.. لكن ماحدث لم يكن

بحسبان أحد.. فأثناء سير الرجل والحاكم بالطريق العام صدمتهما سيارة نقل مفلوتة الفرامل!!.. تكتموا خبر الحادثة ونقلوهما إلى مستشفاى.. وقتها كنت أبرع من يمكنهم اللجوء إليه من الأطباء.. وبالرغم من أن تلك الفترة بالذات كانت الأقاويل فيها والافتراءات قد ترددت حول شخصى إلا أنهم تناسوا ذلك أمام مصابهم.. فقد صرحت ذات يوم عن توصلى لإمكانية نقل رأس بشرية بأكملها من جسد لآخر لتعمل بنفس الكفاءة التى كانت عليها.. أى زرع رأس بشرية كزرع أى عضو آخر.. راحوا ينددون بى وباكتشافى ويوصمونني بالجنون!!.. المهم.. فوجئت بالمصابين فى غرفة العمليات.. كان أغرب مافى الأمر أن الأثنين متشابهان بحد يعجز معه المرء من التمييز بين شخص الحاكم والرجل المناهض إلا من طول القامة وميل جسد الحاكم للبدانة نوعا ما.. وجدت رأس الحاكم ماعاد يصلح بالمرة بينما دهمت السيارة جسد الرجل المناهض فصارت أجهزته مقبلة على التوقف تماما.. عجزت عن أن أمنع نفسى من تطبيق نظريتى فى نقل الرأس البشرية.. أقنعت الطاقم المساعد لى وجعلتهم يقسمون على كتمان ذلك حتى أصرح لهم بإفشاء السر.. و..أجريت العملية.. نقلت رأس المناهض لجسد الحاكم.. سهرت عليه لا أفارقه..أنتظر لحظة عودته من غيبوبته.. فما من سبيل غير أن أوحى

له بأنه الحاكم وقد عالجته حتى شفى بينما توفى الرجل المناهض!..
وبالطبع كان ذلك ماصرحت به للمسئولين.. وأفلحت حيلتى وتقمص الرجل الدور وخرج من المستشفاى حاكما وأنا مندهش لذلك!!..

وفى فترة زمنية قصيرة تغيرت أشياء كثيرة.. بين يوم وآخر يعزل الحاكم وزيرا وتخرج الصحف بالأخبار.. الحاكم عزل وزير الاقتصاد بعدما تبين له أن قدراته لاتجاوز قدرات مدرس اقتصاد فى مرحلة التعليم المتوسط.. ووزير الزراعة الذى لاتجاوز ثقافته الزراعية حدود إعداد «الزبادى» وزراعة اللفت.. و.. و.. حتى أتم عملية إحلال كاملة لحكومته.. وجه ضربة ذكية للعقائديين.. سحب البساط من تحت أقدامهم.. غيرّ دستور البلاد.. اتجه نحو البرلمان فأمر بحله وإجراء انتخابات برلمانية جديدة وفر لها كافة ضمانات النزاهة والحيدة بعدما انسحب شبح العقائديين.. أوْلى اهتماما بالغا بالارتفاع بمعدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية.. وضع أم الدنيا على الطريق.. ثم .. اتجه نحو نفسه.. صورة بالزى العسكرى!.. نياشينه وأنواطه.. كان قائدا بالجيش!.. قرر.. أعلن قراره على الشعب.. أجدنى الآن قد أنهيت مهمتى وقمت بواجبى نحو وطنى.. لذا فإننى أتنازل عن منصبى كحاكم لأم الدنيا لقناعتى بأن الأسباب التى كانت تستدعى أن

يكون الحاكم من رجالات الجيش قد انتهت.. إننا فى سبيلنا لعهد جديد يسمح بأن يتقدم لمنصب الحاكم أكثر من شخص يرى فى نفسه صلاحيات المنصب لينتخب الشعب من بينهم الأصلح.. عاشت أم الدنيا التى يحميها جيشها ويصونها شعبها الأصيل.. ماهان علىّ الرجل.. وددت لو أنبه أنه ليس صاحب الصور والنياشين.. لكنى تحسبت لأشياء كثيرة.. و.. قام الشعب بانتخاب أحد الثلاثة مرشحين رئيسا لأم الدنيا التف الشعب حوله وقنع بتوجهاته.. وكانت القفزة فى مناخ جديد خال من الأحقاد والصراعات التى كانت تعوق تقدم الشعب المكافح.. وعادت نزعة الانتماء إلى توهجها ففعلت ماتحدثنى عنه وتعجب له..

وعندئذ أنهى فاضل حديثه مبديا سعادته بكون ولده أحد الجنود المجهولين الذين سيقدمون لأم الدنيا العطاء وفيرا ليثمر التقدم والرقى.. بينما ذهل الحاضرون من هول ماسمعوا وكأن كل منهم راح فى سبحة يدبر فيها أمر نفسه!!..

حكاية السبع مظلوم



غمرت الفرحة الأسطى مظلوم.. اعتذر لزبائنه منتظرى الدور وراح يعمل موسه بخفة وطلاقة على ذقن زبونه الذى اعتبره الأخير فى يومه السعيد.. وسعت الدقائق القليلة كلمات كثيرة متلاحقة نقلت لزبونه مبلغ سعادته وسببها: انتظرته لسنين.. فى كل مرة بنت.. أربع بنات.. أربع ؟!.. وأخيرا جاء السبع.. سبحان الله.. كدت أفقد الأمل.. الولد ولد والبنت بنت.. كأنى كنت أخادع الأقدار.. أحمد الله وأقول البنت مثل الولد.. أقولها بلسانى والهم يعتصر قلبى!.. يمسح على ذقن زبونه.. ينصرف الرجل ويوصد مظلوم باب دكانه.. السبع.. السبع.. ليكن اسمه السبع!.. السبع ولاغير السبع..و..

وتمضى السنون.. تبتلع سواد شعر مظلوم ليبدو رأسه كلفافة قطن.. ينحنى ظهره ويضمر جسده.. ويبقى قميصه الكالح وبنطلونه على اتساعهما يشهدان للجسد الضامر بأنه ذات يوم كان يملأهما عن آخرها غير أن الكبر والهم اعتصراه حتى صدتهما عظامه!.. الهم.. فالهم فى حياة الكثيرين ابن فاشل لأمل عظيم.. كلما عظم الأمل عظم هم تحقيقه واستفحل وثقل لو أحبط.

ولد الأمل فى صدر مظلوم منذ ولد السبع ولده.. فى مناماته.. فى أحلام يقظته.. زمان غير مشروط بأن يرث الابن حرفة أبيه.. الفقر المدقع يخرج طبيبا.. مهندسا.. ضابطا.. فلاح اليوم فى ندرة مهندس أو طبيب الأمس آه.. لو يصبح السبع طبيبا.. حلم عمر .. حلم

يستأهل كفالة السبع برعاية تمنع يد الحرمان عن أن تصيبه.. تفرغه لدراسته توفر القلم عشرة أقلام.. والكتاب ومصروف اليد.. حتى لو جاع مظلوم وزوجته وبناتهما الأربع اللائى بقين بالبيت «عوالة مافلحن» فى شىء..

شب السبع كبنت بكر مدللة خجولا.. انطوائى يتعثر لسانه فى رد تحية!.. ينجح بالكاد.. يتعثر فى سنوات، ومظلوم كمن يحاول أن يبعث الروح فى صنم يستنهض ولده من عثراته.. يستعين على عقله الجامد بكافة الوسائل.. بعض زبائنه من المتعلمين.. مدرسين خصوصيين.. كتب خارجية.. يشركه فى أحلامه.. يزرع الغيرة من أبناء الجيران الفالحين فى صدره وتموت فى لحظتها.. لاميل عند السبع مظلوم للمنافسة .. قدرات عقلية متواضعة.. تحد من تطلعاته.. يموت الأمل فى صدر مظلوم مع كل مرة رسوب ويعود ليحيا مع بداية عام دراسى جديد.. يفرح مرة ويغتم أخرى إلى أن حصل السبع على شهادة التجارة المتوسطة.. توقف حلم مظلوم.. فرض الواقع حلما جديدا متواضعا.. يجلس مظلوم إلى نفسه يحادثها.. مالها الدنيا صارت كبوتقة نار ضيقة.. يصهرنا غلاء البقاء فيها.. ما أشبهنى بقاطرة عتيقة متهالكة تقطر خلفها عربات مكتظة بهموم لاتبرحها فى محطات ولاتعرف نهاية لرحلتها!. ينفذ وقود القاطرة ومازال حملها يدفعها على قضبانها الصدئة بلا رحمة.. تهتز.. تميل على جنباتها..

حتى الوقوع يأسا... التعجيل بنهاية تتلهفه.. لكنه يتأبى.. البيت.. البنات الأربع.. سترتهن واجبة.. لكن. كيف؟! أكثر من محاولة عدت أحصد آلامها.. واحدة أفلتت والثلاث بقين يتوالى عليهن الخطاب.. يحولنا البحث عن شقة قدر الإمكان إلى خصوم!.. يطول البحث.. يحل اليأس.. يذهب كل إلى حاله لأعايش خواطر ثلاثة مكسورة بخاطر مزقته اللاحيلة.. دكانى شاخ معى.. أصبح مطمعا للسماسرة ومستثمرى السوبر ماركت ونوادى الفيديو.. مابقى غير زبائنى القدامى.. كهول من عصر المليم.. انصرف الشبان للكوافيرات.. قصات شعر وسيشوارات.. أشياء لم أعهدها.. نادرا ماتعامل أدواتى شعورا سوداء! لو أخليت الدكان لتبدد المقابل والتهمنا الجوع فريسة هينة.. والقليل الدائم أفضل.. يسد الرمق.. أمل وحيد ليس بعيدا عن الله تحقيقه.. أن يعمل السبع.. راتب السبع يغيننا.. سنتان والسبع عاجز عن تحصيل وظيفة بات قطا خائبا نطعمه ونداويه!!

وبقيت وظيفة السبع هى الحلم والهم.. القوى العاملة ممتنعة عن التعيين.. شركات الاستثمار تخفض من حجم العمالة بها.. والمسافرون يعودون.. استغنوا عن خدماتهم.. حتى وظائف المسابقات المحدودة تحتاج لوساطات ثقيلة.. صفحات الإعلانات المبوبة بالصحف تلخصت فى طلب المربيات والخدم والفراشين.. والسكرتيرات



الحسناوات!!..

صار مظلوم مجاملا فوق طاقته.. يبالغ فى الاحتفاء بزبائنه.. يبدأ الحوار من عنده.. الغلاء البيت.. البنات.. والسبع.. وظيفة للسبع تعينه على الباقين.. وينتهى على لسان الزبون واعدا باقتناص أى فرصة تسنح!.. وزبون عزيز.. أصيل.. ما أن وقع نظره عليه حتى أحس أن الفرج قد جاء.. ساءل نفسه كيف غاب عن خاطره أن يلجأ إليه فى محنته هذه؟!..

الحاج «حسن فواز» عضو البرلمان عن العمال.. زبون أصيل.. رغم فوزه بعضوية البرلمان لأكثر من دورة غير أن يحافظ على تعاملاته القديمة.. الحلاق ذات الحلاق الخياط.. البقال.. المقهى.. ولم لا؟! هنا قواعده الشعبية.. أصواته الانتخابية يحرص عليها.. رأسه الآن بين يدى مظلوم.. ومظلوم يبدى عناية خاصة بالزبون رفيع المقام.. يبدأ الحوار.. يصب همومه فى مسامع الرجل. عضو البرلمان لديه تبريرات منطقية لكل الأزمات.. كلها.. تبريرات يصدقها العقل وتكذبها الحاجة والعوز.. يتمرد عليها واقع أليم.. الغاية والمصير.. والمطالب العادلة والحقوق.. حد الكفاف المفقود.. والرجل لايفوت فرصة يطرح فيها دفوعه وقناعاته.. تحول إلى محاضر فصيح.. ومظلوم مستمع بالصبر.. أحس أن مكابرته ليست فى صالحه.. يقول الرجل مايقول ويستعين بما يستعين من مصطلحات.. المهم فرصة للسبع.. وأخيرا

تلقى مظلوم وعدا بتدبير وظيفة لولده..

استطاع عضو البرلمان أن يوفر فرصة عمل للسبع مظلوم.. كاتب بالحزب.. يجلس خلف ماكينته الكاتبة كل يوم يدق على الورق.. إنشاء يعى بعضه بالكاد.. صرفه جفاف العبارات ووعورة المصطلحات عن محاولة تفهمها.. ينقلها من خط اليد كالمنوم.. شهور كثيرة مرت وكتاباته مازالت تحتاج لكثير من المعالجة.. يوما استدعاه رئيسه.. خرج من عنده بنصيحة «إن لم تعايش ماتكتبه ستظل هكذا كثير الخطأ.. اقرأ.. فى الصحف.. فى الكتب.. ثقف نفسك.. أنر عقلك».

ولأن السبع يبغى الإجادة فقد استمسك بنصيحة رئيسه وراح يعمل بها.. حريص على مطالعة الصحف اليومية.. المجلات.. الكتب.. نشرات الحزب وبياناته يعايش ماينقله من خط اليد.. أجاد.. استحسن رئيسه اجتهاده.. أمعن فى المعايشة.. تملكته روح ناقدة.. يجلس إلى آلته الكاتبة يدق حروفها بأصابع آسفة لنتاج صراع يعايشه.. فى البيت فى الحارة.. فى الزقاق.. وسط أهله وجيرانه عالم وأمام محصلة أعمال لجان الحزب المختلفة عالم آخر.. لاشىء مما يسطرون يمت لواقعه بصلة!.. الناس فى سطورهم راضون ينعمون.. لامحن ولا أزمات وإن كانت فهى مفتعلة!. لاشىء عن بنات يعنسن وزيجات تفشل من أجل شقة.. ولاشباب ينحرف.. يرتشى يختلس لضيق ذات اليد وغياب الأمل.. ولا ربة بيت ألهبت الأسعار رأسها فمرت بالسوق يحدثها

خاطرها.. وأكوام قمامة مابقى غير أن يبتلعها أهل الزقاق و.. و...
كل شيء آمن ومستتب.. إنجازات هنا وهناك..

ذات مساء تسلم السبع خطابا صيغ ليلقيه أمين عام الحزب على الجماهير فى الصباح لينسخه على الآلة الكاتبة.. مهمة اعتادها وأجاد فيها.. شرع فى الكتابة.. فرغ من المقدمة.. استوقفه رئيسه.. سينصرف مضطرا لأمر مهم.. تعليماته للسبع ألا ينصرف قبل أن يفرغ من نسخ الخطاب ووضعه فى درج آمن.. الحضور مبكرا.. وواصل السبع مهمته.. صفحة.. وراء صفحة.. يعايش مايكتبه.. روحه الناقدة حاضرة توافق فقرات وتسخر من غيرها.. وعند ذيل الخطاب يحضرها سؤال تطرحه فى سخرية: ماانعكاسات كل ماورد فى الخطاب على حياته وأسرته.. جيرانه ومعارفه؟!.. الإنجازات.. كل الإنجازات بأرقامها صادقة كانت أو كاذبة.. يجمع الصفحات يرتبها.. يشرع فى قراءتها من جديد.. المقدمة.. يصرفه خاطره يذهب معه فى سبحة قصيرة.. الحارة.. الزقاق.. المجارى.. القمامة.. البيت الآيل للسقوط.. العوانس.. شباب الحارة المحروم.. فرص العمل.. الأمل.. الدخل.. الغلاء.. وتستفزه مشاهدات سبحته.. يمزق مانسخه.. يشرع فى الكتابة على آلته من جديد.. المقدمة ذات المقدمة.. إخوة وأخوات ومن الكتاب آيات.. هادئة.. آسرة ويسلسل الفقرات.. فقرة وراء فقرة... صياغته هو .. انتهى منه.. عاد يقرأ ماصاغه من جديد.. أحس

بارتياح.. كأنه رفع حجرا ثقيلا عن صدره.. طوى ورقات الخطاب.. وضعها في ظرف.. ثم في الدرج الآمن.. انصرف من الحزب.. في البيت حضرته الوساوس.. لاسبيل للنوم.. يؤرقه التفكير في عواقب فعلته.. التعطل من العمل.. انقطاع الراتب الضئيل.. وربما السجن.. الوقت يمر وهو يتقلب في فراشه.. ساعات قليلة ويخرج النور من الظلمة.. يفكر في مخرج من محنته.. لو يذهب للحزب فيمزق ماصاغه ويطبع الصياغة الأولى.. ولم لا؟!.. أخيرا استقر على أن يذهب مبكرا إلى مقر الحزب ويعيد للخطاب صياغته الأصيلة.. هدأت نفسه.. وراح في النوم.

استغرق السبع مظلوم في نومه.. استيقظ في العاشرة.. لم يعد أمامه سبيل لإعادة الصياغة الأصلية للخطاب أو حتى الاقتراب من مقر الحزب.. مذيعة التليفزيون تعلن: ينتقل الإرسال إلى إذاعة خارجية لنقل خطاب أمين عام الحزب في لقاء جماهيري.. تزوغ عينا السبع.. تتملكه رهبة هائلة.. ترى أي خطاب سيلقيه أمين الحزب؟!... بأي صياغة؟!.. لا أمل في النجاة فهم بأي حال سيعثرون على الخطاب صياغته..

هناك في موقع الاحتفال يقدمون للمناسبة التي سيلقى فيها أمين الحزب خطابه الجماهيري.. على المنصة الرئيسية يجلس أمين الحزب.. لم يصله الخطاب بعد.. مسئولو الحزب يتحرون الأمر.. لدى

كاتب الماكينة!.. وأين هو؟ لم يحضر اليوم.. ورئيسه «شوكت الدرملي» بالمستشفى بين الحياة والموت حيث أصيب في حادث تصادم ليلة أمس.. والخطاب؟!.. أحدهم عثر عليه بدرج المكتب.. في عجالة وضعوه أمام أمين الحزب الذى تهيأ بالفعل لإلقاء خطابه..

ما أن تجاوز أمين الحزب مقدمة الخطاب حتى أدرك أنه بصدد صياغة مختلفة عن تلك التى عرضت عليه بالأمس ووافق عليها.. تناول مختلف.. الضد تماما.. لعلها مكيدة أو خيانة! لكن.. مابال هؤلاء الناس «الجماهير» يصفقون بحرارة ويبدون موافقتهم على كل ماينطق به!.. يقول.. ويصفقون.. اغتنم الفرصة واستمر فيما لقى تجاوبا من تلك الجماهير التى طالما استقبلت خطبه وتصريحاته بفتور.. استشف فيه أسلوبا جديدا لامتصاص غضب الجماهير وكسب شعبية جارفة فى أوساطهم.. ألم يظهره مطلعا على دقائق وتفصيلات حياتهم؟!.. مشفقا عليهم من معاناتهم فى إطار من النقد الذاتى لحكومة حزبه!.. و.. و.. ولم يفته إيجاد نوع من التعادل بين الطرح الصادق للواقع وآمال الجماهير فى المستقبل.. دعوة لإصلاح المسار.. هبة يقودها بنفسه.. خاتمة تلهب حماس الجماهير وترضى تطلعاتها.

جرت التحقيقات فى سرية تامة.. عزز اختفاء السبع مظلوم الشك فى كونه وراء مؤامرة تحريف الخطاب.. مات شوكت الدرملى قبل أن ينطق بكلمة.. انحصر الاتهام فى شخص السبع.. وربما استخدمته

بعض العناصر المناوئة بغية إحداث وقيعة بين الحزب وقواعده الشعبية!!
أمين الحزب يتعجل أمر القبض على السبع.. نشط الرجال يبحثون فى كل مكان.. وقع فى قبضتهم.. تحقيقات متواصلة جهابذة التحقيق يغوصون فى أغوار نفسه.. يرفعون تقريرهم لأمين الحزب. «إن تحريف السبع للخطاب جاء من منطلق شخصى.. المذكور واسع الاطلاع لكنه وقع تحت وطأة ظروف اجتماعية قاسية.. تتملكه روح ناقدة تتوق لعالم مثالى.. يغمره الشعور بالذنب قبل أبيه حيث عجز السبع عن أن يحقق حلم أبيه فى أن يصبح شخصية مرموقة أو حتى مساندته ماديا بعد التحاقه بوظيفته ذات الراتب الضئيل».. ويأمر أمين الحزب بمد يد العون للسبع مظلوم على ضوء ظروفه الاجتماعية القاسية مع تعيينه وكيلا لمسئول لجنة الإسكان بالحزب ليعايش ـ بمثاليته ـ من موقع مسئول صعوبات العمل السياسى!..

تجاوز السبع مظلوم أزماته بفضل قرار أمين الحزب.. شقة للأسرة بإحدى المدن الجديدة.. وأخرى لزواج السبع.. دكان بالمدينة للأسطى مظلوم الذى تنازل عن دكانه القديم لجاره صاحب نادى الفيديو مقابل عدة آلاف حول بها دكان المدينة الجديدة إلى سوبر ماركت فخم.. وتوالت فتوحات السبع التى عالجت فيه شعوره بالذنب قبل أبيه وعائلته لما جرفه تيار العمل السياسى وقوض مثاليته.. وعاذ السبع يلجأ لتقارير اللجنة السابقة على توليه المسئولية لتخرج تقاريره على نسقها!!

حب فى الوقت الضائع



ثلاثة شهور كاملة استغرقتها رحلة علاجه فى الخارج.. فى الطريق من المطار.. الحوار متصل بينه وبين ابنه «حمدى» الذى يقود السيارة.. شئون الصحة واستعادته للياقته.. الشعور بالغربة منذ أفاق من غيبوبة المخدر بعد العملية الجراحية.. لهفته لرؤية «كاميليا» حفيدته من ابنه الأكبر «رؤوف».. وبقية الأحفاد!.. شركتهم واستقرار الأوضاع بها.. ويسترسل الأب: أتعرف ياحمدى.. على الرغم من كثرة تجاربى وحنكتى فى الحياة غير أن محنتى الأخيرة كشفتنى أمام نفسى أقل دربة عما كنت أعتقد!.. إن ثقة الإنسان فى قدراته قد تدفعه لارتكاب حماقة.. الله يرحمها والدتك.. كانت تشاركنى ثقتى فى قدراتى.. شفافة ملهمة.. حسمت معى موقفى المتأرجح من قبل المنصب الوزارى.. تجارب بعض أصدقائى ممن تولوا مناصب مماثلة تخوفنى.. أحدهم ذكرها لى صريحة.. أنه كان واجهة فحسب.. لم يكن وزيرا بالمفهوم الذى عرفه حتى يوم رشح للوزارة!.. وآخر وصف رئيس وزراء سابق بـ«المسكين»... كان «يتدحرج» وحكومته فوق منحدر اللامعقول أمام التوجه السياسى!.. لذا تخوفت يوم رشحت للوزارة. كان علينا أنا وهى أن نحسم موقفى فى ساعات قليلة.. قالت: أنت تختلف عنهم.. شخصيتك تفوق شخصياتهم قوة.. صاحب رؤية

سياسية.. اقتصادى كبير.. لك عشرون مؤلفا فى الاقتصاد وعلاقته بالسياسة وتلامذة مريدون كثيرون.. أعرفك جيدا.. لن تكون محض واجهة تحت أى ظروف.. و.. قبلت الوزارة.. الشهور تمر.. أجنحة كثيرة داخل الحكومة الواحدة!.. التنسيق ضرورى بين وزارتى والوزارات الأخرى.. وجدته مستحيلا!.. توجهات وزارتى ذاتها يمليها رئيس الوزراء بعدما يستقيها من جهات لاعلاقة لها بعلم الاقتصاد .. القرارات تمرر رغم رفضى لها.. فى قمة الصراع توفيت والدتك.. أول لطمة عنيفة تلقيتها.. والثانية كانت فشل السياسة الاقتصادية التى أصبحت محل انتقاد رجل الشارع.. كل أصابع الإتهام تشير نحوى! من يصدق أننى صرت واجهة رغم احتراسى.. كان لزاما علىّ أن أقرر.. الاستمرار كواجهة أو الاستقالة.. حقيقة لن يسمح لى أحد بأن أفصح عن أسباب استقالتى.. لكن التوقف عند هذا الحد من التردى أوفر وأرحم بكثير من الاستمرار.. قررت.. انسحبت.. علت نبرة النقد والتهكم على شخصى.. تحركت الدعاوى القضائية ضدى ممن أضيروا من قرارات مررت رغما عنى!. أصبحت المسئول وحدى!! هيه.. الحمد لله.. تصور ياحمدى.. عاودنى القلق هناك فى فترة النقاهة.. أحدهم قدم لى كتابا.. بالفعل جاء فى وقته.. قرأته..

تمنيت أن يقرأه كل الناس.. يجتذبك من قلقك بل ويعلمك كيف لاتقلق.. أحضرته معى.. حقيقة قرأته مرارا.. و.. فى التفاتة من الأب نحو الطريق عبر زجاج السيارة تبين أنه ليس طريق العودة إلى بيته.. يسأل حمدى: إلى أين ؟!.. يجيبه: مفاجأة أعددناها.. مفاجأة؟.. نعم.. لكنى أستطيع أن أكشف عنها الآن.. أصبحنا عندها.. أوقف السيارة بمحازاة الكورنيش وطلب من والده أن يهبط منها ويعاين العمارة المواجهة.. ويواصل حمدى فى الكشف عن المفاجأة: أنا حمدى ابنك وصديقك.. طالما حدثتنى عن رغبة صرفتك عنها مشاغلك عن تحقيقها.. أتذكرها؟.. السكنى بمواجهة النيل معشوقك.. فى الطابق السادس شقة اشتريناها.. الشقق هنا من طابقين.. كثيرة الحجرات.. تستوعبنا.. حضرتك.. شقيقى رؤوف وأسرته.. أنا وأسرتى.. مازلنا نحتفظ بفيللتنا.. جميعهم ينتظرونك.. تمضى الأيام.. فى جلسة عائلية استعرض الابنان النجاحات التى حققاها فى إدارة الشركة والتوسعات التى أجرياها بها منذ تولى الأب المنصب الوزارى حتى عودته من رحلة العلاج فى الخارج.. ألحا فى طلب عودة الأب لرئاسة الشركة من جديد.. لكنه كان قد حسم موقفه.. العودة للتدريس فى الجامعة وإعداد مؤلف جديد عن العلاقة

الوثيقة بين الاقتصاد والسياسة.. أذعن الوالدان لرغبة الأب وكان طلبه بالعودة إلى الجامعة قد قوبل بكل ترحيب .. و.. سرعان ماتأقلم مع واقعه الجديد.. يومه موزع بين الجامعة وأحفاده بالبيت وفى مقدمتهم «كاميليا» الأقرب إلى قلبه.. وصفحات يضيفها إلى مؤلفه الجديد.. وزيارة أسبوعية إلى موطنه الأصلي.. حى القلعة حيث أصدقاؤه القدامى واللقاء بشقة العائلة التى مازال يحتفظ بها فى بيتهم القديم.. هناك مخلفات والديه باقية.. وذكريات كثيرة.. وكأن الذكريات تستدعى أصحابها!!.. ذات يوم.. وكان يوم لقائه الأسبوعى بأصدقائه القدامى فى القلعة.. فى الأسانسير التقى بها.. امرأة جاوزت الستين.. فى نفس عمره تقريبا.. أربكته إطلالة فى وجهها.. أحسها.. هى.. نطق باسمها.. خشى أن تكون أخرى فتحسبه يهذى.. التفتت للنداء.. هى كاميليا!!.. فى دهشة تنطق باسمه.. ناصف عثمان؟!.. نعم ناصف.. نعم كاميليا!.. ياه.. عمر طويل.. استقر الأسانسير.. خرجا إلى الطريق يتهاديان احتوتهما سيارته.. إلى الزمالك.. فى سبيلها لزيارة إحدى ابنتيها.. الأخرى تقيم معها بنفس العمارة لكنها فى سفرة مع زوجها الدبلوماسى.. و.. مواقف من ماعون الذكريات.. كثيرة ذكريات جيرتنا.. البيت واحد.. والقلب واحد لكنه الفقر

وإصرار الأسرة على اهتبال فرصة تقدم عريس غنى.. إصرار أصاب حب السنين فى مقتل.. ماعلينا.. انظر كيف أصبحنا.. أرملة عجوز أنا.. لا.. إنك مازلت كاميليا.. عند بيت ابنتها أوقف السيارة.. اتفقا على موعد لغد!.. ودعها: غدا ستكون معى مفاجأة لك...

فى شقة القلعة وبعد انصراف أصدقائه أخرج «ناصف» كشكولا من درج مكتبه القديم وعكف على مطالعة كل صفحة فيه.. صفحة بعينها يقصدها.. يذكرها جيدا.. تلك الصفحة التى قطع على نفسه عهدا فوق سطورها بأن يكون لها لو عادت مهما بلغا من العمر أرذله..!.. وكان الكشكول فى مجمله عبارة عن رسائل موجهة إلى كاميليا الغائبة عنه يحادثها فيها يوما بيوم كنوع من التسرية عن نفسه وهو فى فورة حزنه من فقدها!!.. وجد الصفحة إياها.. طالعها مرات ومرات.. ضم الكشكول إلى صدره وانصرف عائدا..

فى اليوم التالى حسب الموعد التقيا.. قدم لكاميليا مفاجأته.. كشكوله.. طالعا صفحاته معا.. صفحة بصفحة.. انتشيا.. واصل ناصف من الواقع خارج الكشكول:

كنت قد أضمرت فى نفسى أن أسمى أول ابنة لى باسمك.. كاميليا.. لكنى رزقت بولدين.. لما جاءت حفيدتى الأولى أنثى

أسميتها كاميليا.. لقد شببت وكهلت وأنا أحسب دائما أن أجمل اسم لأنثى جميلة هو كاميليا.. أحبك.. أحبك.. و...

تعددت اللقاءات.. فى لقاء طرح رغبته فى الارتباط بها زواجا.. أبدت تخوفها من أن يحسبهما الآخرون قد جنا!.. كهلان جاوزا الستين يرغبان فى الزواج؟!.. سنكون محل انتقاد ولن يرحمنا أحد.. من ذا الذى سيقدر مابيننا ويقر حقنا فى أن نبدأ من جديد؟! مؤكد سيحسبوننا نجر عليهم المعرة!!.. يقنعها ناصف بحتمية الارتباط زواجا.. يتوصل إليها أن تترك له معالجة الأمر عند ابنتيها وولديه. يحاول بالفعل.. ما وافقه أحد.. سخرت ابنتها من مطلبه وحذرتهما من مخاطبة الأخرى فى الخارج خشية أن يؤثر ذلك على علاقتها بزوجها الدبلوماسى!.. وفى بيته حرص ولداه على أن يقتصر الحوار فى هذا الشأن على ثلاثتهم.. بعيدا عن زوجتيهما.. فى المكتب بالشركة أوجز لهما قصته.. قرأ الحيرة فى عيون ولديه.. الحيرة فى عينى رؤوف حيرة من يبطن رأيا قاسيا.. وفى عين حمدى حيرة رحيمة مشفقة. وكان رؤوف أوسع حيلة من شقيقه.. اقترح أن يسافر الأب.. رحلة سياحية.. لكأنه قالها صريحة: السفر قد يشفيك من جنونك.. وراح حمدى يعالج الموقف بعد عبارة شقيقه: إنها ديمقراطية الحوار التى

رسختها أنت فينا.

نرجو أن تعذر فينا الغيرة عليك وعلى مكانتك ووضعك الأدبى والاجتماعى .. و.. احتد الأب: أى وضع أدبى ذلك الذى يتأثر بزواجى من سيدة فاضلة؟!.. ومن ذا الذى يضره أمر زواجى.. راحتى.. هل تحسبوننا قد انتهينا.. متنا وماتت أفئدتنا لكوننا قد جاوزنا الستين؟!.. لا .. إن فى صدورنا قلوبا مازالت تنبض بالحياة وفى ضمائرنا ذكريات غالية.. ما أدراكما بحال مثلى وكلاكما حمل فى صدره قلبا مرفها ما أن دق دقة حتى تجاوبت الدنيا تحتضن رغبته فى الارتباط بمحبوبته.. وفرة وإمكانات ميسرة.. جنبتكما لوعة آخرين فى الحب معدمين ما استطاعوا لحبهم شيئا.. فقر مدقع وإمكانات غائبة.. ما أدراكما بحب الحارات وامتزاجه بدماء أصحابه؟!.. كان يجب أن أدرك من البداية أننا لن نلتقى.. لستما الآن فى حاجة إلىّ ولست فى حاجة لأحد.. بوسعكما أن ترتبا للقاء مع المحامى.. سأتنازل لكما عن كل شىء!!..

استقر ناصف عثمان من يومها فى شقة البيت القديم بالقلعة.. محادثات هاتفية ولقاءات تجمعه بكاميليا.. متأرجحة هى بين قناعتها ورفض ابنتها..أحيانا تتصور ارتباطها بناصف حقا أصيلا فى أمر

شخصى، وأحيانا أخرى تراه دربا من الجنون والخروج عن كل معقول.. تأرجح معذب تمنت لو تحسمه.. قررت.. لتمر بقية العمر كما مر أكثره. من تحمل فراق السنين الطوال يستطيع أن يتحمل مابقى.. فى لقائهما الأخير أعلنته بقرارها.. ليكن آخر لقاء بيننا.. يجتهد فى إقناعها.. تجاوبه: أراه مستحيلا.. و.. تنهض منصرفة.. من وراء الواجهة الزجاجية تلتفت التفاتة أخيرة.. يومئ لها برأسه وعبراته تنساب على وجنتيه..

فى بيتها وحيدة.. التقفتها الذكريات حتى اللقاء الأخير منذ ساعة واحدة.. عاودتها حالة التأرجح.. رجحت كفة ناصف هذه المرة!!.. حقها الأصيل فى الارتباط بناصف مضافا إليه كونها جرحته ولوعته مرتين!!.. كادت تصل لقرار.. رنين متواصل من التليفون.. ابنتها.. تلومها.. فبعضهم رآها بصحبة ناصف عثمان منذ ساعة.. احتدت الأم: بل سيروننى معه على الدوام.. اليوم سأتزوجه.. بل الآن.. جمعت بعض أشيائها فى حقيبة.. توجهت إلى البيت القديم بالقلعة.. دقت الباب.. احتواها ناصف بين ذراعيه.. قرأ قرارها فى عينيها وضمتها.. استدعى مأذون الحى.. أمضيا ليلتهما يغترفان من ماعون الذكريات.. أتذكرين.. كنت تدقين درج البيت بقدميك

لأعرف أنك خارجة فألحق بك.. أتذكر؟.. كنت أجن عندما تسافر مع أقربائك الأغنياء إلى الأسكندرية فى الصيف. ضربتك مرة لما رأيتك «ببلوزة» شقيقتك الكبرى.. وقد كشفت عن ذراعيك.. أما أنا فقد سعدت بالعلقة إياها.. كاد يجعلنى حبك شاعرا!!.. وأنا كنت أحب كل كلمة منك وأجدها أجمل وأرق من كل الأشعار.. كنت أغار عليك جدا.. وأنا أتغذى وأنتشى من غيرتك.. أضعنا العمر!.. لا .. مازالت هناك بقية مرضية.. إن يوما واحدا من أيامنا هذه يعوض العمر الفائت بأكمله.. معا حتى الموت؟.. نعم حتى الموت.. وفى اليوم التالى جلسا يحرران خطابات ترضية لأبنائهما.

بائع الأحلام



أخيرا تغلب على تردده.. وحده بالمكتبة.. يحدث نفسه وكأنه يهمس فى أذن شخص آخر غريب عنه.. آخر مرة يطرح على نفسه دوافعه وقناعاته وكأنه يتحسب للومها إذا مافشل فيما عزم عليه.. موافقة نزعة الخير عقد اكتمال يرضيه.. عقد مصدق لارجعة فيه.. مازال يفند الحجج والأسباب.. كل وقت له أذان.. أشياء كثيرة نحسبها خوارق.. وأفعال كنا لانتصور أن يقترفها أحد.. مخبول من يفكر فيها أو مجازف خلف وراء ظهره مبادئه وانحرف.. نحن الآن فى زمن اللامعقول.. كل شيء تربح من ورائه جائز وإلا بقيت وحدك العاجز لاتملك غير الحقد ينمو فى صدرك على من سبقوك وربحوا الكثير فتجاوزوا أزماتهم.. أعوام كثيرة تتعاقب وأنا هو أنا.. أمين هذه المكتبة العامة.. موظف حكومى.. راتب لايتناسب بأى حال ومتطلبات المعيشة.. غيرى حاول وأفلح.. لكنى طبعت على وظيفتى أقدم الفهارس لرواد المكتبة.. هناك من يستعير كتابا.. ومن يعكف على قراءة وأنا أقطع فراغى بالمطالعة حتى أصبحت عادة.. حدثت الطفرة. وأنا مازلت لا أفعل شيئا غير أن أطالع الكتب والمراجع.. علم النفس.. الاجتماع.. الدراسات بالمعايشة.. و.. تفسير الأحلام.. أشعر أن رأسى قد انتفخ بها.. ولكن جيبى مازال خاويا.. المجتمع تحول.. أحد لم يحضر للمكتبة منذ فترة.. المكتبة فرعية تقع بحى شعبى.. الجميع

انصرفوا لما يحقق مكسبا.. حتى الأطفال الذين كانوا يحضرون فى عطلاتهم الصيفية .. يعملون الآن بالورش والمصانع الخاصة.. أنا هنا وحيد مفلس.. لا أتقدم بحساب العصر! تقدم بى السن وأعبائى زادت.. لامفر إذن من أن أجازف.. أتاجر فى شىء مما برأسى.. كالمدرس والطبيب و.. و.. جميعهم يتاجر فيما اكتسبه فى فترة دراسته.. أنا شىء مختلف.. عبقرى وكنت أحسبنى لا أستطيع شيئا.. أطلقت لحيتى.. سأزاول الحرفة المبتكرة فى نطاق هذا الحى الشعبى.. أتنازل وأمر بالحارات.. أنادى.. رابح يفسر أحلامك.. يحلم لك بالنيابة عنك.. أحلام وردية للبيع.. كوابيس مزعجة لمحبى الإثارة.. هنا رابح العجيب.. المقابل جودة ياسادة ياكرام!!

فى الصباح خرج رابح يمر بالحارات.. توقيت مناسب.. فالرجال خرجوا إلى أعمالهم ومابقى غير ربات البيوت الأميات فى معظمهن.. ينادى رابح يفسر لك أحلامك.. يحلم لك بالنيابة عنك.. يكشف المجهول ويتوقع المستقبل والمقابل جودة ياسادة.. أمن الناس لسماحة وجهه وحسن حديثه فلم يجدوا مانعا من مجاراته لاسيما والمقابل جودة!.. ذاع صيته بالحى.. هذا يفسر لها حلما.. وتلك يدير معها حوارا قصيرا ثم يتمدد فى مخدعها وحده بعض الوقت لينهض بعد ذلك ويفسر لها حلما رآه بالنيابة عنها.. ويأخذ من واقع المعدمين مادة

أحلامهم المزعومة.. نشطت النساء فى إقناع أزواجهن.. يدفعون... يجودون بالكثير.. كل يود لو يستأثر به ليحلم له حلما أطول من الآخر!.. بل ذهب البعض إلى الدفع مقدما لزيارات أسبوعية يريه فيها مستقبله فى أحلامه حتى آخر عمره!.. بعض النسوة يخدمن فى بيوتات راقية.. حدثن مخدوميهن فى أمر أعجوبة حيهن.. انتقل نشاطه إلى العمارات والقصور والفيلات.. هوانم وسيدات مجتمع وصالونات.. رجال من ذوى النفوذ وكثيرون من أصحاب الجاه!.. قفزة.. من أسرّة فقيرة صلدة إلى مخادع ناعمة ليتمرغ فى حرائرها وتبتلعه ليونتها!! من أحلام الغيرة وتوقع الرزق والبحبوحة إلى منامات تقلد المناصب والانتصارات السياسية والاقتصادية وتوقع رسو عطاءات وحجم عمولات!.. يتبادلونه من قصر لقصر وكأنه شريط فيديو مثير منعته الرقابة على المصنفات!! والبعض قام بتسفيره إلى ذويه وأصدقائه بمختلف البلدان!.

جمع رابح مالا وفيرا.. يود لو يتوقف عن نشاطه.. يكتفى.. أدركه الكلل وزهد التنقل بين البيوتات والبلدان.. يستطيع الآن أن يقيم مشروعا.. يؤسس بنكا بثروته الطائلة.. إلى متى سيظل أسير كذبه وخداعه؟! شيطان احتل رأسه.. يستثيره مجتمعه.. كلهم يكذبون.. يخادعون.. يتعللون بغلاء المعيشة وهم سببه.. أنسيت ممارسات

المدرسين ودروسهم الخصوصية المفروضة على أبنائك.. يبيعون النجاح والانتقال من عام لعام آخر دراسى!.. هب أنك أو أحد أولادك مرض.. سنة.. محض سنة أو ناب أصابه التسوس.. سيلزمك الطبيب بتحمل غلاء معيشته!.. وياويلك لو كانت علتك نفسية ولجأت لطبيب من هؤلاء الذين يستضيفهم التليفزيون!.. كثيرون.. أصحاب مهن وحرف.. كلهم!.. لايا رابح.. لغة العصر ولابد أن تستمر تخاطب بها مجتمعك وإلا ماتفهمك أحد.. استمر يارابح.. رزق أولادك.. استغفل مجتمعك الذى طالما استغفلك.. وهذه المرة لم يستطع رابح أن يتغلب على تردده.. عايشه إلى أن تحلل إلى قرار بالاستمرار!!..

أحد أصحاب الجاه قدمه لمستشار الحاكم.. كان لقاء مثيرا.. تملكته الرهبة لحين.. كان الرجل يتحدث بإيجاز.. طلب تفسيرا لمنام رآه.. اجتهد رابح.. فسر المنام.. الرجل قلق على منصبه.. لايتصور حياته فى غير موقعه يعانى من صراعات الاتجاهات المغايرة فى الحكومة.. تلك الأصوات التى تنادى بإبعاده عن أذن ورأس الحاكم.. يتوهم لو أنه أقنع الحاكم بعزلهم جميعا وتنصيب غيرهم باختياره المطلق!!..

وفى جانب وردى من الحلم بدأت انعكاسات تصوره فى غلبة

مسعاه واطمئنانه على البقاء حياة أشبه بحياة السلاطين.. قصر منيف.. خدام.. عرش وتاج.. وحوريات يتراقصن ويقدمن مالذ وطاب..!! ولم يجد رابح مانعا من أن يرمز إلى أن الكثير من ذلك سيتحقق له إذا احتاط للقريب والبعيد ولم يؤخذ بمداهن.. و... و.. وطرب مستشار الحاكم بتفسير رابح لمنامه فراح يصب من واقع مايعانيه فى أذن رابح ويتوعده بالهدايا وجزيل الأجر إذا داوم على زيارته ولبى دعواته وقتما احتاجه.. وانصرف رابح بعدما تمدد فى فراش الرجل ورأى له حلما ورديا بالنيابة عنه هو فى حقيقته امتداد لحلمه الأول...

فى جلسة خاصة بين الحاكم ومستشاره مازالت بعض الأمور معلقة.. معالجة أمر ما تكشف عن أمر آخر يمثل كارثة.. هكذا.. معالجة بعض الأمور تأتى على حساب البعض الآخر ولاسبيل لخلق توازن!.. المستشار بديهته غير حاضرة.. عاجز عن حل من حلوله طويلة الأجل التى تسكن الخواطر وتهدئ النفوس.. استبد به الضيق.. كان ينفجر لولا أسعفته البديهة أخيرا... سيدى: إن مانناقشه الآن ليس بجديد.. هكذا كان حال كل الحكام قبلك.. إذا ستروا الرأس تعرت القدم!.. دع ذلك لى ومن الغد سأشكل اللجان المتخصصة وأوجد حلولا لكل الأزمات.. كل الأزمات.. وارتاح الحاكم لمبالغة مستشاره فانتقل بالحديث متناولا بعض الأمور الشخصية التى استحضرت فى

رأس المستشار فكرة أن يقدم له بائع الأحلام الملهم على أنه اكتشافه.. راح يجمل فى الفكرة مبديا اقتناعه بقدرات الرجل وعلمه الغزير بأمور تفسير الأحلام وموهبته الأصيلة فى أن يحلمها بالنيابة عن غيره.. استثارت الفكرة فضول الحاكم فأبدى استعداده لاستقبال بائع الأحلام فى قصره محاولا قدر استطاعته أن يبرز عدم اقتناعه وأن الأمر لايتعدى الرغبة فى تمضية وقت طيب تماما كاستعانة سلاطين الأزمنة الغابرة بالمهرجين وتوظيفهم بقصورهم للتسرية عنهم..

وما أن استخلص المستشار موافقة الحاكم حتى استأذنه أن يرسل فى إحضاره.. أذن له الحاكم.. انطلقت السيارة بمندوب من القصر إلى منزل بائع الأحلام.. مطلوب بأمر مستشار الحاكم.. فى هذه الساعة؟!.. نعم بقصر الحاكم والأمر مهم.. فى الطريق إلى القصر يفكر.. لعلها همسة من المستشار فى أذن الحاكم.. سأفسر له حلما أو أحلم له بالنيابة عنه.. أحلم للحاكم ذاته؟!.. ما أطيبها فرصة.. هذا التردى الذى أنا فيه.. كذبى وخداعى وغيرى من الناس.. المجتمع بأكمله.. من ذا الذى دفعنا إليه؟.. من صنع ضائقتنا وصراعاتنا حتى صرنا يلتهم بعضنا البعض؟.. أليست هى فلسفات الحكام ومستشاريهم ووزرائهم فى إدارة شئوننا؟ ستكون أول مرة أقول فيها الصدق منذ احترفت هذا العمل.. نعم.. سأقول الحقيقة التى يعجز

عن أن يقولها غيرى فى وجه حاكم.. دون خوف من عقاب أو اضطهاد.. منام.. محض رؤية.. ولم يحدث على مر الزمان أن اقتص أحد من نفسه لقتيل منامه.. أو عاش بذنب قوم أغرقهم وكان ربان سفينتهم فى الحلم!.. ما أطيبها قصة.. يلزمنى أن أبدو أمامه متماسكا ثابتا كالدعاة والحكماء.. سأكون..

بخل الحاكم بحلم من أحلامه وطلب من بائع الأحلام أن يحلم له حلما بالنيابة عنه ويفسره.. تمدد الرجل بفراش الحاكم.. بعد وقت نهض وكأنه استغرق بالفعل فى النوم.. جمعهم صالون القصر.. تحدث مستشار الحاكم: قل يارابح ماذا رأيت فى حلمه؟.. الحاكم يتطلع إلى وجه رابح.. نظراته الحادة كأنها أمر عسكرى بأن يعجل بسرد الرؤية ولايؤخر..

نطق رابح فى ثبات:

سيدى.. منامك هذا أعجب مارأيت.. لاشىء بالتحديد!.. أحلام الآخرين كانت محددة.. واضحة.. من يتحين فرصة ما.. يأمل فى رسو عطاء عليه.. يتقلد منصبا.. يقهر عدوا.. يتوقع بحبوحة فى الرزق.. كلهم فسرت أحلامهم.. إلا سيادتك.. تململ الحاكم وزفر زفرة لفحت سخونتها وجه رابح بينما استفزت ألفاظ رابح مستشار الحاكم الذى احتد عليه وطلب منه بلهجة آمرة أن يقص مارآه دون

مقدمات مملة وتعليقات ساخرة مستفزة..

استطرد رابح: ما كنت أقول غير الحقيقة.. فما رأيت غير زحام.. أناس من كل لون يتصارعون حول شيء وقد اعتلوا منصة أو مسرحا بينما افترش الأرض أمام المنصة جمع غفير فى أردية موحلة وقد استندوا برؤوسهم إلى سواعدهم.. كما يفعل المغتم أو الحائر أو من راح فى توهة!.. أحد لم أتعرف على ملامحه.. فالذين اعتلوا المنصة توارت وجوههم خلف رايات مختلفة يحملونها.. والذين افترشوا الأرض أعطونى ظهورهم فى المنام حيث جلسوا فى مواجهة المنصة.. والجميع يتصايحون فى وقت واحد مما يصعب معه التعرف على صوت واحد منهم.. لاتفسير عندى لما رأيت..

دقائق مرت دون أن يتفوه أحدهم بكلمة.. المستشار يتشاغل بتصفح أوراق على المنضدة أمامه.. ورابح طأطأ رأسه بين قدميه يتحين رد فعل تخابثه على الحاكم بعد أن طرح رموزه ذات الدلالات الواضحة لدى الحاكم ومستشاره!.. والحاكم ذاته عاد من سبحته القصيرة يتطلع فى وجه رابح.. يومىء برأسه وكأنه التسليم بما ورد بالمنام يحركها رغما عنه...

استشف رابح إيمان الحاكم بقدراته ومواهب.. صدق!.. نطق الحاكم.. وجه حديثه لرابح.. وماذا بعد يارابح؟.. ماذا تستطيع أن



تقدم لى؟.. أجاب رابح.. أستطيع.. أستطيع.. أن أجزئ لك منامك أتمدد بفراشك عدة مرات كل مرة من أصحاب راية من الرايات أتصورك ضمنهم تقودهم أو تؤازرهم ولنرى تفسير كل منام على حدة.. وافق الحاكم وأيد مستشاره الفكرة!.. وراح رابح ينفذها..

يتمدد رابح بعض الوقت فى فراش الحاكم ويعود ليقص عليهما مع أصحاب أى الرايات كان.. يصف حاضرهم ومستقبل البلاد والحاكم يقودهم أو يؤازرهم فيتخلص تفسير الرؤية فى حاضر مرير ومستقبل بائس هو الضياع بعينه.. يضيق الحاكم بالمنام وينتظر المنام التالى.. وهكذا حتى فرغ بائع الأحلام من منامات بعدد الرايات وتوجهات أصحابها ولم تزل الصورة قاتمة والمصير ذات المصير..

فى ضجر نطق الحاكم: ماذا بقى فى جعبتك يارابح.. أجاب رابح وقد بدا مرهقا يتصبب عرقا: بقى منام واحد ليس بعده.. أبدأ متخيلا سيادتكم وقد ملت للجمع الذى افترش الأرض.. أمام المنصة.. البؤساء.. تستلهم حلول الأزمات والقرارات المصيرية من معاناتهم الحقيقية.. تؤازرهم.. تقودهم نحو أمانيهم هم.. تجعلهم مستشارك الوحيد والحاكم قبلك..

وافق الحاكم على مضض فاتجه رابح نحو فراش الحاكم.. ولما كان وحده بالحجرة فلم يكلف نفسه مشقة اصطناع الاستغراق فى النوم..



جلس يفكر.. يرتب أفكاره.. ماذا سيقول للحاكم؟.. ضربته الأخيرة.. الصرخة المكتومة فى صدره والآخرين.. قوية يجب أن تكون واضحة.. مدوية تهز أركان هذا القصر..

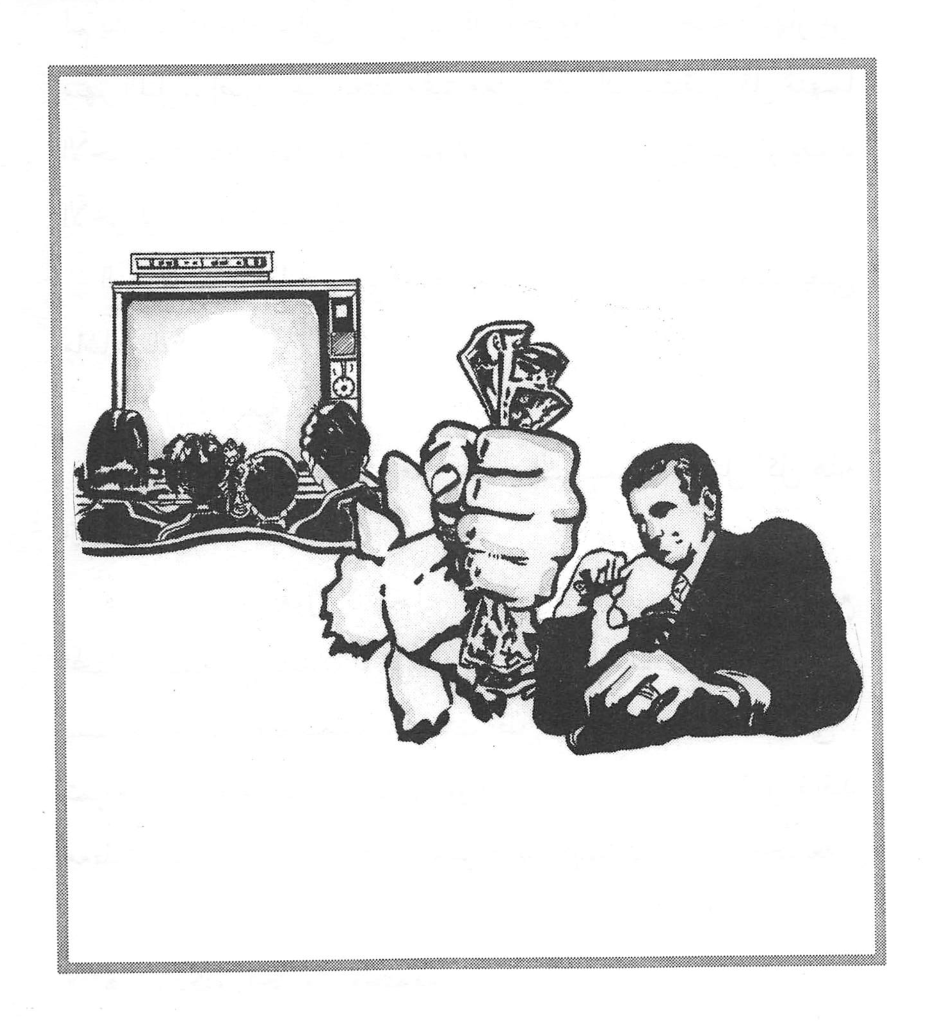
وما أن مثل رابح أمام الحاكم ومستشاره حتى راح يقص عليهما مارآه فى المنام المزعوم: عجيب مارأيت ياسيدى.. خطيرا!.. الجمع الغفير.. عادوا من توهتهم نهضوا.. يصرخون الصرخة وتستجيب أنت لها فتلقى بواحد ممن يحملون شارة التبعية لك فى الفراغ خلف المنصة فيحملون واحدا من بينهم ويقدمونه لك لتجعله محل من رميت.. هكذا حتى رميت بغالبية حاملى شارة التبعية لك!.. أتعرف ياسيدى من كان أول من ألقيت به إلى الفراغ؟!.. هو مستشارك هذا!.. أما أنت فقد جلست هناك على كرسى اخترته عند طرف المنصة.. وصعد رجل من بين الجمع.. حملوه على أكتافهم.. مزق مرجعا ضخما ومد يده إلى الجمع فتلقى مرجعا آخر وضعه على المنضدة.. بعدها انشغل الجمع.. كل يغرس بذرة فى الأرض أمامه..

يتناقلون الخبر فى سعادة «فعل الحاكم ما لم يكن متوقعاً منه»... سمعتهم وقد اصطلحوا لما حدث اسم «ثورة التصحيح الشعبية الأولى والأخيرة».. وأصحاب الرايات قد تخلوا عن المنصة.. اندمجوا فى الجمع يرفعون راية واحدة هى قميص مهلهل ممزوج بطين الأرض

خلعه صاحبه وقد أقبل على العمل بهمة ونشاط..

بهت الحاكم ومستشاره.. اصطنعا دهشة.. سأل الحاكم رابح: وماتفسير مارأيت يارابح؟.. أجاب رابح: سيدى لقد فسرت لك أحلاما بعدد رايات حلمك الأول وحسبى فيك أنك لاتقل مقدرة عنى فى تفسير أى حلم.. واثق أنا من ذلك.. بل وأظنك قد انتهيت من تفسيره قبل أن تسألنى.. أتأذن لى بالانصراف؟..

وأذن الحاكم لرابح بالانصراف.. آثر رابح أن يعود إلى منزله سيرا على الأقدام والدنيا مقبلة على نهار.. يستعيد فى ذاكرته مادار فى حضرة الحاكم ومستشاره.. وأخيرا يعاهد نفسه على اعتزال الكذب والخدع انتظارا لرد فعل أحلامه لدى الحاكم.. وإن لم يفعل الحاكم شيئا!!.. لن يقرأ.. لن يعمل.. سيعتزل الحياة..



اختتم التليفزيون برنامجه.. «باكر يوم عمل» غير أن أحدا منهما لم يشر ـ كالعادة ـ إلى أن الوقت قد تأخر ومايتأثر به حاله بالنهار من سهر الليل.. إصرار غير معتاد وغير معلن على أن يستبقى كل منهما الآخر مستيقظا بجواره فلا ينبهه إلى فوات الوقت، ويتمنى لو يعمد الآخر إلى عدم الإشارة إلى ذلك..

الوقت يمر.. مازالا عند فكرة السهرة التليفزيونية.. ماذا يعنى ماشاهدناه ؟..

هو : رؤية واقعية..

هى : أنا الأخرى معك.. فما عاد هناك ضمير يتحمل كل هذه الضغوط..

هو : لا .. بل أقول إن إلحاح الحاجة لأسباب ليست من صنع المحتاج نفسه مع فقدان الأمل فى أن تنتهى الأسباب الضاغطة عليه يستعديانه على مجتمعه.. تشتت بطل السهرة.. تحوله المفاجئ.. تمرده.. جبروته.. نهاية لصبر طويل.. الحاجة ملحة والأمل فاقد معطياته!.. القضية ليست فى ضمير البطل وإنما فى ضمير مجتمعه..

هى : لكنه واحد من مجتمعه..

هو : .. نعم.. لكن هناك ـ كـمـا وضح لى ـ قـوة أكـبـر من شخصيات القصة المتفردين تحكمت بتوجهاتها فجعلتهم على نحو مارأينا..

ماعلينا.. قالتها وهى تنظر فى ساعة يدها.. لكنها لم تذكر شيئا عن الوقت كأنها تؤكد لزوجها استعدادها للمواصلة رغم مضى الوقت.. وقت النوم.. وكأن تأكيدها قد بلغه.. تشجع.. واصل

قلت : إنه ماعاد لدينا من مصروف البيت غير ثلاثين جنيها رغم أننا مازلنا فى منتصف الشهر.. أكدت ذلك.. استطرد : لامسرح ولاسينما.. لاحلة جديدة ولافستان.. لاشى غير الإيجار والطعام.. ومع ذلك نعود من منتصف كل شهر لرحلة القلق والقفز فوق الأيام.. أيام عمرنا قلق.. حيرة.. خوف من مفاجأة تبدد القليل الباقى فى أيدينا.. إلى متى إننا نكاد نرهب الحياة كما نرهب الموت.. كلاهما مكلف.. ندفع بأنفسنا نحو الحياة وحياتنا تخنقنا لتدفعنا نحو الموت.. أو البقاء بينهما.. لكأن كدنا فيها لايكفيها ثمنا لتحتوينا..

أثرت كلماته على ملامح وجهها مقرة، متحسرة.. آسفة على أن يكون ذلك هو الواقع بعينه.. حركة يدها عكست ماتشعره من عجز وكأن لسان حالها يقول: «إن مانعانيه لاحيلة لنا فيه».. قرأ انطباعها..



راح فى سبحة.. استعادته بهمسة.. (هيه).. عاد يطرح صور سبحته.. تطابق بين الحالين حال بطل السهرة إياها وحالهما.. حاجة ملحة لم يسهما بأى قدر من مسبباتها.. وأمل فاقد معطياته: تخرجين إلى عملك فى الصباح.. المواصلات.. الصراعات هناك.. تنافس.. اضطهاد.. معاكسات العمل والطريق فى زمن يعجز كثير من الرجال عن أن يصدقوا أن البعض الكثير من النساء مازلن يخلصن لأزواجهن.. وقلبى باق يتلوى بين ضلوعى.. يرسل إشاراته لعقلى «ليتك قادر على أن ترحمها» وفى عملى.. الزملاء يتطاحنون.. رؤساء كثيرون فوق رؤوسنا يتصارعون.. قد تصيبنا شظايا صراعاتهم.. حتى التقدم فى الدرجة والأقدمية لايعنى شيئا.. وفى النهاية راتبى وراتبك رقم فارغ من قيمته لايستطيع لنا شيئا!.. كَدْنا نستضئل نتاجه!

ظنها ستضيف شيئا.. لكنه كان حال ولدهما الوحيد.. كيف هو؟ متى يعود..؟ تعلقت عينا الزوج بصورة ولده المعلقة على الحائط المواجه.. يتحدث وكأنه يقرأ من الصورة: يعود؟!.. ويترك جنة عمه؟!.. صغيرنا أدرك حياتين استطاع أن يميز بينهما.. بل ويختار أى الحياتين يعيش.. هناك فى بيت جميل مكتمل.. وسائل راحة وتسلية.. تميزه مكانة عمه.. يصحبه معه فى سيارته إلى محال تجارته..

المتنزهات والملاهى كل مايشتهيه حاضر.. وهنا.. لاشىء غير تحاوراتنا.. الجنين فى بطن أمه يستطيع أن يتفهم أى أزمة تعانى.. تبتسم الزوجة فى سخرية.. يواصل.. دائما نشتهى أشياء.. نشتهيها فحسب.

الوقت يمر.. عادت الزوجة من المطبخ تقدم الشاى.. استعادته من سبحة جديدة.. أكاد أشعر أن ولدى لم يعد ولدى.. لو لم تكن ظروف شقيقك وزوجته لمنعته عنهما رغما عنه.. أو قل لما تعلقا به على هذا النحو.. استودعها الولد فترة ذهابى للعمل فتنتهى إلى أن تستأثر به وتبقيه طوال الوقت.. لينعم الله عليهما بطفل حتى نستعيد ولدنا.. لكن.. يقاطعها الزوج: لكن ماذا؟ حكمة ربنا.. ساخرا: ليتنا نعود صغارا ويتبنانا شقيقى لننعم بما ينعم به ولدك هناك.. ولنختار من جديد مستقبلنا.. انتماءاتنا.. أعمالنا قناعتنا..

كل تشاغل بشأنه بينما أعمل عقله فى شىء ما.. ملامحهما وحدها إحباط بلغ منتهاه.. كان الاسترسال فى استعراض أزمتهما المتورمة زادها انتفاخا حجب عنهما طريق العودة إلى ماكانا عليه من قبل.. عادت الزوجة تنظر فى ساعة يدها.. جاوزت الثالثة صباحا.. ألن ننام؟.. قالتها وهى مازالت على حالها مستسلمة للحالة التى ألمت

بهما، كأنها أعطته الشوكة التى سيدسها فى عين الورم ليفجره فراح بالفعل يعرض لما ارتآه مناسبا لاستئصال ذلك الورم: منذ ثلاثة أعوام تقريبا كان يتبقى معنا قرابة الجنيهات العشرة كفائض يضاف لحساب الشهر الجديد.. الغريب فى الأمر أن أسلوبنا فى الإنفاق لم يختلف.. غير أن الملاحظ أن دخلنا حتى الستة أشهر الماضية كان يصل بنا حتى نهاية الشهر بالكاد أو بالأصح بعد التنازل عن ضروريات مختلفة.. أما بعدها فإننا نتخبط.. بالفعل نتخبط ونرتبك.. وتزايد حجم التنازلات فى الضروريات.. لا أخفى عليك أن الشيطان قد وسوس لى ذات مرة بأنك قد مددت يدك لمصروف البيت لضرورة تخصك!.. حقيقة هذا أمر مستبعد فيك لكنه الشيطان وقد امتطى رأسى المتأزم!.. تتأثر الزوجة من ذلك وتهم بالدفاع عن نفسها لكنه يوافيها باعتذاره.. ويواصل.. لن أمد يدى لأقترض.. لا أستطيع بالمرة.. ماتعودت ذلك.. أموت ولا أفعله.. لكن.. هناك بديلا .. نعم.. لدينا ثلاثون جنيها.. جيراننا يلحون فى طلب العشرة جنيهات مساهمتنا فى صيانة موتور رفع المياه والخزان.. ندفعها.. يتبقى عشرون.. عشرة جنيهات لك.. ومثلها لى.. تنطق الزوجة فى استخفاف واضح: وبعد.. ويواصل: تذهبين إلى بيت أبيك ومعك هدية بنصف نصيبك لتمكثى هناك

حتى نهاية الشهر بزعم أن المياه منقطعة عن البيت تماما لحين إجراء تركيبات الموتور والخزان حيث تستحيل الإقامة فى غياب المياه روح الإنسان.. وبنفس الزعم أذهب أنا لبيت شقيقى.. ثم.. نعود مع بداية الشهر لنعيد حساباتنا من جديد.. على أن يعد كل منا كشفا ببعض مايمكن أن يضاف لقائمة الضروريات المتنازل عنها!!.. وضعت الزوجة نصيبها بين كفيها برهة.. واستعادها: «هيه».. نطقت وهى تنهض: هيا بنا ننام.. يتابعها حتى تدس نفسها فى فراشها ويسألها من جديد: هيه.. مارأيك؟.. تجيبه وهى تتثاءب: لامانع.. سأعود من العمل على بيت أبى..

عاد الرجل إلى بيته بعد أن أجرى مكالمة اطمأن بها إلى أن زوجته قد عادت من عملها إلى بيت أبيها.. استبدل ملابسه.. اتخذ من غرفة الصالون مستقرا.. فرد على المنضدة حزمة ورق كان قد استحضرها معه.. شرع فى الكتابة.. تقديم لما عزم عليه أنا «......» الموظف بمصلحة «......» أقدمت على الانتحار جوعا بكامل إرادتى وكل ما أرجوه أن ترفق مذكراتى هذه بمحضر إثبات حالة الانتحار ويسمح للصحف المختلفة بأن تنشر ماتتضمنه.. إذ أتمنى أن يصل مضمونها إلى ضمير مجتمعى وألا أكون قد أضعت حياتى هدرا.. حياتى التى

أقتدى بها كل متواضعى الحال أمثالى.. وليغفر الله لنا جميعا.. وصفحة لزوجته: حبيبة عمرى تحايلنا على كل الظروف لننتصر لحبنا.. لم نكن ندرى أن حبنا الكبير سيصل بنا إلى هذه الزاوية الضيقة لنختنق وتختنق معنا مشاعرنا الطيبة.. لابد أن نعترف بأن الحب وحده ماعاد يكفى.. أشعر أننى قد أتعستك معى.. لم أتقدم بك خطوة.. نتراجع دائما إلى الوراء.. أعذرينى إذ عجزت عن وسيلة أخرى للتعبير عما يجيش بصدرى..

وصفحة: من اللحظة امتنعت عن الطعام والشراب.. قد يتصور البعض فى ذلك هروبا من تحمل مسئوليات يضطلع غيرى بأثقل منها.. لكنى على العكس من ذلك أرى فيما أقدمت عليه منتهى القدرة على تحمل المسئولية إذ تجاوزت حدود مسئولياتى الشخصية لأجعل من نفسى صرخة الكثيرين من أمثالى.. تلك الصرخة التى ستصل حتما إلى ضمير مجتمعنا.. وعلى كل هى وجهات نظر.. ولا أخفى أننى بالفعل قد زهدت فى الحياة.. وصفحة: أعترف بأننى قد أصبت بعلة الحقد الاجتماعى المتفشية، أصبت بها فى وقت متأخر عن كثيرين غيرى.. فما حيلتى وعينى ترى بينما كدى أغمى!.. كنت قنوعا لكن ما أعايشه وماينتظرنى أقل بكثير من حد يقنع به

إنسان.. قد يخالف البعض ضمائرهم لكى يتشبثوا بهذه الحياة.. لكن فى الحقيقة لا أستطيع ذلك.. إذ ظلت قناعتى تستند فى جانب كبير منها إلى توافقى مع ضميرى الشخصى.. لن أخالف ضميرى وأموت ولا أفعلها..

نزل عن كرسيه لما أحس آلاما فى ظهره.. اختار أن يفترش الأرض مستندا بظهره إلى الكرسى غير أنه عاد وآثر أن ينطبخ أرضا واضعا أوراقه تحت ذقنه يفكر فيما سيخطه بقلمه من معان تصطرع بداخله.. وكان سلطان النوم كان قد سبقه إلى أرضية الحجرة وافترشها فالتقفه واحتواه ليأخذه من عذاباته وواقعه الخانق إلى الرؤى والمنامات حيث تسقط اعتبارات الحاجة والجوع ومضاهاة الكيانات وتسحق خيالات الحالم قبضة الأزمات.. وتمر ساعات لينسحب سلطان النوم ويعود الرجل إلى غفلة الواقع وتوهة الأزمات التى عادت قبضتها تحتل موقعها على رقبته.. الإحساس بالجوع تسرب إلى نفسه.. ظمأه.. تقلصات معدته الخاوية تستفز انتقاداته المتزاحمة داخل رأسه فتتسابق نحو مخرجها على القلم..

صفحة : بدأت أشعر بالجوع والظمأ.. لكم هو هين.. نعم هو هين مهما بلغت وطأته.. فكسرة خبز قد تعالج الإحساس بالجوع وجرعة

ماء تروى الظمأ حتى لو لم يكن الإنسان تملكهما بماله.. لكن كم هو مر الاحتياج.. أن يحتاج البيت شيئا ضروريا.. أن تحتاج زوجتى وأنا عائلها.. أو يحتاج ولدى.. وأعجز بأى حسبة عن ذلك.. إلغاء لكيانى المسئول.. شلل لنفس حقها أن تطمح لإنسانية صاحبها..

وصفحة: أستطيع أن أجزم بأن زماننا قد فرض علينا الولاء للقادر.. الذى يوالى دفع مقابل الولاء..

أعرف أسرة سافر أحد أبنائها للخارج وعاد بثروة.. أشقاؤه الأكبر منه والأصغر دخلوا تحت أبطه طواعية.. حتى الأب أسلم عمادة الأسرة للولد العائد!.. وولدى أدرك بنظرته التباين بين القادر والعاجز فتجاوز عن كل مانحتسبه فى صلة الأبوة والأمومة وتشبث بنعيم عمه حتى إذا استعدناه أحال حياتنا جحيما ببكائه وتشنجه حتى يعود إليه من جديد!!.. ماذا بقى إذن لمتواضعى الحال أمثالى؟

تزايد إحساسه بالجوع.. تملك رأسه صداع.. دخل تحت إمرة سلطان النوم ويعود.. مرات ومرات.. تداخلت أفكاره.. عاجز هو عن ترتيبها.. ترتعش تتداعى عشوائية.

.. يده ترتعش بالقلم.. يصارع الوقت حتى يفرغ أكبر قدر من انتقاداته على الورق.. صفحات وصفحات: منذ بدأت اعى مايصل

لمسامعى وتقرأه عيناى أدركت أن هناك «تحديات» .. زجاجة لها عنق.. مستقبل.. رفاهية.. حزام للبطن.. تقشف أزمة.. أجيال تتعاقب وهى المسميات باقية والتحديات فى نفس إطارها لاتخرج عنه!.. يوما تمنيت أن يتوقف التحدى عند جيلى لأنعم بحد من الرفاهية فانتهت التحديات.. لكن عند البعض.. وبقى الآخرون لايتحدون.. الأغنياء يعيشون فى وسط الفقراء.. يضيفون الحسرة إلى التحدى.. الدنيا تلاطف الأغنياء.. والفقراء يتابعون هذه المغازلة بأعينهم.. مظاهر الأبهة حتى فى زفاق .. السيارات تزحم الحارات.. الفيديوهات وشرائطها حديث بعض الشرفات.. إعلانات التليفزيون.. آه.. ما أظننى اشتريت من الأشياء المعلنة عنها غير الشيبسى والشويبسى مجهول السر.. كثيرا ما أتصور فى هؤلاء المنعمين أنهم لصوص.. مختلسون.. أو متاجرون فى الممنوع.. معذور مثلى فى تصوره.. لو أحال نفسه إلى شعلة نار لما جنى غير راتبه.. محدود حتى آخر نفس فى حياته!!

بدأت تتوه عنه الكلمات.. يروح فى غيبوبته ويعود.. سقط القلم من يده.. توارى تحت ورقة.. مازال رغم ذلك على عزمه فى أن يخلى رأسه من كافة الانتقادات.. كلمات متناثرة ينطق بها بالكاد كلما عاد من غيبوبة: لماذا نعيش؟ الموت أقرب.. «الجمعية.. الصيدلية.. الخبز..

الإيجار» .. ويرن جرس الباب.. يرن فى إلحاح.. مفتاح يعالج الباب.. زوجته وشقيقها.. يحاولان استعادته من غيبوبة.. الإسعاف .. فى المستشفى عاد.. رجل الشرطة يسأله فى محضر.. أضربت عن الطعام بقصد الانتحار.. لماذا؟ التفت حوله.. الأوراق.. أحضروا المذكرات.. لن أتكلم.. انصرف الجميع وبقيت زوجته وشقيقها.. يسألها: لماذا حضرت؟ تجيب: لم أعثر على أى أثر لك فى أى مكان.. حبيبى لا أود أن تتحدث فيما جرى.. ينفعل شقيقها.. استثاره هدوء شقيقته واستسلامها.. ارتفع صوته: قولى له إنه جن.. ذلك سيكون رأى الناس فيه.. وسيدفع غرامة نظير محاولته الانتحار.. مجنون.. مجنون.. يبتسم الزوج فى سخرية وينطق بالكاد: معذور أنت أيضا.. فجيبك متخم بالجنيهات أيها العائد من سفر.. زوجتى تفهمنى.. زوجتى تقدرنى..

آخـــر يـــوم فـــى حياة مـــواطن



طبع على أن يستقيظ فى وقت مبكر.. السادسة أو السابعة على الأكثر.. عشرون سنة خدمة منها سنوات الخدمة العسكرية كضابط احتياط.. سنة واحدة فى المعاش المبكر لم تغير من نمطه الحياتى.. هو ذاته لم يسأل نفسه يوما ما الحكمة فى أن تنهض مبكرا وما من ضرورة تتطلب ذلك؟!.. أدرك صلاة الصبح.. يصليها مرتين.. أحدهم نصحه إن استطاع أن يعوض مافاته.. كان قد فاته الكثير.. سنوات طويلة فى محراب معبودته.. بعد الصلاة توجه إلى المطبخ أعد كوبا كبيرا من الشاى بالحليب.. تعالى صفير «المنبه» صفير يوجد حالة من التمرد فى كيان الإنسان.. «منبه» عصرى تقول عنه «سميرة» زوجته.. إن صفيره الرذل ابن التكنولوجيا الملقحة بعلم النفس!.. تستيقظ سميرة.. تعود من الحمام على حجرة بنتيها تستنهضهما.. تدب الحركة فى أرجاء الشقة الواسعة.. يعلو صوتها بإجابة على سؤال لإحدى بنتيها: نعم «أونكل فريد» صحا وتتلفت حولها فلا تجده.. تتجه نحو الشرفة وهى تحادث نفسها.. آه عادته الصباحية.. «يادى طابور الصباح» بالفعل تجده فى الشرفة.. فى الركن الذى يكشف له فناء المدرسة المقابلة.. تقف إلى جواره.. صيحة الأطفال الموحدة فى تحية للعلم.. تهز جذعها هزة تجعلها

تلامسه.. ينتبه لوجودها.. تتحرك صفوف التلاميذ متجهة نحو الفصول وعيناه مغرورقتان بالدموع.. يحاول أن يجففها قبل إطلالته في وجهها.. تتعجل الإطلالة مداعبة.. يشيح بوجهه مشيرا نحو طفل في مقدمة صف هناك.. الكلمات تتنازع مشاعره صدقها وصراحتها وكأنه يوم الصراحة.. صراحة الصراحة.. لتخرج صادقة مهما كلف ذلك الآخرين. كل الآخرين.. حتى لو كانت سميرة أولهم.. نبرة الصوت تختلف.. صوت غير الصوت.. قادم من قرار.. هذا الطفل.. يذكرني بنفسي.. راقبته كثيرا.. في الصباح وعند انصرافه يحفظ مكانه في مقدمة الصف.. معتز بنفسه.. يتفاعل مع المارش العسكري.. جاد في سلوكه.. يترفع عن لهو زملائه أمام المدرسة.. أتخيل لسان حاله يحادثه بأن القدر قد ادخره لمهام أكبر!.. تلك هي الشخصيات التي يحادثها الوهم مبكرا.. الأنموذج البطل.. سبارتكوس.. أتاتورك.. ناصر.. علي بن عبد الواحد في رواية رد قلبي.. نحمل عذابات الدنيا.. فرادى يصدمنا واقعها.. يتمرد علينا باطل إناسها.. يسحقنا لايُبقي فينا شيئا..

وتحاول سميرة : فريد.. حبيبي.. ماذا ألم بك؟.. إن الفراغ ينهشك.. ويستطرد فريد: كلكم أخذتم مني مأخذكم.. لم لاتدعو

الفراغ يأخذ منى مأخذه؟ أنت نفسك أتذكرين؟.. أخذتى الأنموذج البطل.. أنت وابنتيك.. كانتا طفلتين.. وكنت تزورين شقيقك وأنا أزور شقيقى الأصغر المقبوض عليهما ضمن مجموعة من طلاب الجماعة بتهمة اعتناق الشيوعية.. كانا متحابين ويشاركان فى مجلة حائطية.. ليس لهما فى الشيوعية من قريب ولا من بعيد.. سخرنا معا من خطأ التصنيف!.. خرجنا بأسفنا الضاحك أوصلك لبيتك.. دب فى قلبى شىء.. وفى قلبك.. سمعت منك عن جور زوجك العربيد ذى الجنسية المختلفة..داومنا على اللقاء.. سمعت منك وسمعت أحسستك وطنى يعربد فى طرقاته محتل غاشم.. ثرت.. غامرت.. حاربت.. حررتك من قيد العربيد.. صدنى الجميع.. أبى.. أمى.. أصررت.. قلت لا إنها أول معرفتى بالحب وقد جاوزت مراهقتى أنها لى.. وقبلت شرطك القاسى.. للحرص على البنتين مهلة خمس سنوات تعودين بعدها للإنجاب.. خمس سنوات مرت سريعة والرحم ذات الرحم الذى أنجب البنتين ماعاد لصحوة الإنجاب!..

وتتململ سميرة متسائلة أتقص علىّ ما أعرفه فيك وفى نفسى؟.. مالك تجمع مشكلات عمرك فى سلة واحدة؟.. عزيز على نفسى إلا يكون لى منك ابن.. ولكن.. إن ابنتى هما ابنتاك.. أنت الأب وليس



العربيد الذى يبدد أمواله على النساء فى كل بقاع الأرض.. إنهما أدركتا ذلك.. تحبانك..

يحتد فريد: نعم.. وهاهى مظاهر الحب تتضح وتتكشف.. أنت ياسميرة ترعين علاقة غير متكافئة بين ابنتك والفتى المتسلق إياه!.. أنت ومن وراء ظهرى..؟ وفى النهاية إما أوافقكما أو تتجنبانى؟! ماقيمة موافقتى وقد زكيتماه أنت وأبيها.. المخبول لايعى شيئا من نسيج ابنته النفسى.. يتصور أنه ببعض ماله يجعل منها عروسا سعيدة موفقة.

ويكايدنى بالمرة!..

أنا أقرأ فى باطنها بوضوح.. إن ابنتك عشقت أن تجمّل فى كل شىء من حولها.. رثت لحال فتاها المعدم.. إن شفقتها تصور لها أنها تستطيع أن تجعل من نبتة الصبار الظامئة زهرة يانعة فوق ساق مخضرة.. أخشى عليها أن يفوت الأوان قبل أن تكتشف حقيقة مشاعرها.. إنها بالفعل ابنتى.. أكثر من أبيها ومنك أنت.. لكنى لأول مرة أصدم بحقيقة أننى لست الذى يقرر.. تربت سميرة بيدها على ظهر فريد وهى تعتدل فى وقفتها.. وتعود فتضع رأسها على جانب من ظهره تتهدج بنهنهة بكائها!.. فريد.. آسفة.. كدت أتأخر على

عملى.. أستطيع أن أتحمل منك كل شيء.. مهما جرحتنى.. لكنى لا أتحـمل أن أرى فـريد الأنموذج البطل يستـسلم لموجـة إحبـاط عارضة.. لنخرجها مؤقتا من سلة المشكلات.. ليكن فريد فى لياقته هو بغيتنا.. يلزمك أن تكون أنانيا بقدر ما.. مرة أخرى.. آسفة.. هناك فوج سياحى.. ألقاك فى المساء.. أتمنى أن أسمع منك أنك قد مررت على المكتب الإقليمى للمجلة وسويت خلافاتك المادية معهم.. إنك ستعود لتمدهم بتحليلاتك السياسية العظيمة.. وأسمع أنك قد اعتزلت صديقك الذى تمنحه أفكارك يكتبها باسمه.. إنه يستغل موجة إحباطك.. ألا تحزن مثلى على نتاج فكرك.. أرجوك.. حاول من جديد.. إلى اللقاء مساء..

أتاه صوت الصغيرة «سلوى» أونكل فريد.. الإفطار جاهز.. تفضل.. جلس على المائدة الصغيرة قبالة سلوى.. مازالت نيفين على مقاطعتها له.. يمضغ ببطء وهو يراقب حركتها.. تعد نفسها للخروج إلى جامعتها.. عطرها الفواح هو الذى استحضره.. لها.. الكتب الدراسية.. مصروف يدها مازال على عهده يتركه على المكتب قبل أن ينام مساء كل يوم.

خرجت دون أن تودعه.. عند مدخل البيت أدارت محرك السيارة..

حتى السيارة الصغيرة من ماله!

بصوتها الودود نطقتها سلوى «مغفلة» .. اكتفى بإيماءة من رأسه.. بينما يردد لسان حاله «بل بجحة.. بجحة» ..

استقبله صديقه الكاتب الصحفى فى مكتبه بحفاوة بالغة.. سعيد جدا بحضوره.. يحاوره .. المسئولون سعداء بما نطرحه.. امتعض فريد ثم عاد ليبتسم فى وجه صديقه ابتسامة ملؤها السخرية.. نهض.. وقف قبالته.. ليسعد المسئولون بك وحدك.. إنكم لاتفهمون!.. عد إلى ماطرحناه.. اقرأ كيف يسعد بك مسئولوك؟! إننى فى دهشة من ذلك!.. ويزيد من دهشتى ألا تسعد به المعارضة والشعب.. أحد ماعاد يعى شيئا.. شتات تتعامل بعشوائية.. أى طرف من أطراف اللعبة لايمثل استراتيجية واضحة.. توهة آخذة بالجميع.. ماعاد ينفعنى قصورك ومنبرك الذى تحادث منه مسئوليك والناس.. وانصرف فريد غير عابئ بصيحات صديقه الكاتب الصحفى: انتظر.. يامحبط.. يامجنون.. إنى فى حاجة إليك.. عليك اللعنة.

فى فورة انفعاله قرر التوجه إلى المكتب الإقليمى للمجلة لتسوية حساباته.. عند المدخل يهيىء نفسه لصدام نهائى.. سرعان ماستقبله المدير: أين أنت؟.. طالما حاولت الاتصال بك.. يبدو أن تليفونك

معطل.. جميع حقوقك المالية وصلت من باريس.. هاهى.. ليس هذا فحسب.. بل لدى عقد يلح فى طلبك للعمل بإدارة المجلة فى باريس.. ها.. مارأيك؟.. أرى أن توقع العقد على الفور.. إنها فرصة.. راتب كبير.. استعاد فريد نفسه بصعوبة إزاء الموقف غير المتوقع من الرجل.. تناول العقد.. اطلع على بنوده.. حقا مغرية.. طلب من الرجل إمهاله يومين يعود بعدهما بالقرار.. وانصرف.. بلا مقدمات ارتسمت صورة أخيه الأصغر فى جفنيه فحمله شوق طارئ لرؤياه على أن يعرج إلى المصلحة التى يعمل بها.. التقى بمديره.. يضحك الرجل وقد تملكته الدهشة: ألا تعرف أن شقيقك سافر منذ أسبوع؟! معقول؟! إلى الهند.. خرج للدعوة فى سبيل الله.. والله لولا خاطر الوالد الكريم ماكنت وافقت على قيامه بالإجازة.. العمل فى حاجة إليه.. هه.. ما باليد حيلة.. ويستقر الأسانسير بفريد عند مدخل المصلحة.. مازالت صورة أخيه بملء عينيه.. فى الطريق يعالج دهشته... مفاجأة التحول.. ياه.. ثلاثة شهور لم يلتق بأخيه.. كان فنانا يرسم.. يعشق الموسيقا.. أديبا.. زهد كل ذلك.. مزق لوحاته وامتنع عن القلم.. أطلق لحيته ودخل فى جلباب بسيط.. يخرج للدعوة بين الناس.. وأين؟! فى الهند؟!.. ياه.. بعد الخنافس والهيبز

والاتهام باعتناق الشيوعية؟! دار رأسه وتعبت قدماه من السير.. استوقف تاكسيا من قبل أن يحدد وجهته.. فوجئ باستفسار السائق.. تلعثم. أجابه: الزمالك..

دق جرس الباب.. فتحت الشغالة.. أهلا فريد بك.. اتكأت الأم على مسند الكرسى لتستقبل ابنها فى حضنها المشتاق.. دس رأسه فى صدرها وعاد يجذب يدها يقبلها فى شوق.. أجلسته إلى جوارها.. يسألها عن أبيه.. تجيبه وهى تجفف دموعها: إنه فى حجرة المكتب يستلهم فكرة جديدة.. تعرف أنه وقت يرفضنا فيه جميعا لكن مهما كلفنى الأمر سأخبره بحضورك.. سيفرح.. مؤكد سيفرح، وهرولت نحو غرفة المكتب.. بأناملها دقت على الباب.. دخلت.. عادت تدعو فريد للقائه.. دخل فريد.. احتواه الوالد بين ذراعيه.. أجلسه قبالته.. نظر العجوز فى عينى ولده.. تشاغل عنه بقصد.. مازال فريد لايجد شيئا يقوله.. أخذ العجوز بزمام المبادرة:

ـ ماذا بك؟

ارتبك فريد وزاغت عيناه قبل أن يجيب:

ـ لاأعرف.. أشعر أن اليوم آخر يوم فى حياتى.. سأموت.. ربما الليلة..

ـ أتشكو من مرضى عضوى؟

ـ لا.. محض شعور بأننى أودع كل شىء.. كل الناس..

ـ أخلصك القول.. أظنك واهما فحسب.. إنها صرعة التحول.. إنك تعاندها.. تستمسك بعذاباتك.. ساعد نفسك..

ـ أبى ماذا تقول؟! لا أكاد أعى شيئا!

ـ أرأيت.. هأنت مازلت تكابر.. وهذا منشأ الحمى المستأثرة بك.. ياولدى لقد كنت دائما فوق الحد.. فى كل شىء.. وطنى فوق الحد.. تتصور فى مقال منك أنه سيغير كل شىء.. سيمحو أمية الناس السياسية ليقفوا وراءك يدوسون مفاسد عصرهم بأقدامهم! هذا وإلا لن تكتب! تضيق بمفاسد زملائك فى العمل فتنسحب كلية.. تقدم نفسك فداء امرأة مبلية.. تمعن فى تبنى بنتيها ولما تفقد رد الفعل الإيجابى من وجهة نظرك تأسف على ماقدمت وأضعت!.. وربما قررت الانسحاب أيضا!.. الاعتدال ياولدى.. إن هذا ماتصبو إليه نفسك الآن.. ياولدى لست أول من تفهّم قضايا وطنه أو تملكته بصيرة نافذة.. وحتى هذا لايجعلك أقوى مما يدور حولك.. إننى أكتب وألح فى طلب حكم ديمقراطى ولكنى فى واقع الأمر غير آمل فى أن يتحقق ذلك بين يوم وليلة.. بل ربما جاء حكم آخر ينكر

علينا ماخطوناه من الطريق إليها!.. مهمتى تبصير الناس والحكم بما آمنت به.. ورغم عدم رضائى عن أشياء وأمور كثيرة من حولى غير أننى أحيا.. ألتقى بأصدقائى.. نتسامر.. نفرح.. نضحك.. نسافر ونعود.. نتحرر فى أوقات من كل قضايانا.. تحلل بعض الشىء.. اخرج من النار وأنظر إليها من بعيد.. هذب المواطن بداخلك.. اعطه حقه فى الحياة.. أقول لك: فتش فى ذاكرتك عن بعض زملائك القدامى أصحاب الاهتمامات المختلفة اذهب إليهم.. جالسهم.. عش بعض وقتهم بروحهم ومرحهم.. سافر إن شئت.. تزوج من أخرى.. افرح.. عش.. تحلل ياولدى وكفاك هما.. انتشاء غريب ألمّ بروح فريد.. قبّل أباه ويد أمه وانصرف.. رغبة ملحة فى مخالفة عاداته اليومية.. هذه المرة استوقف التاكسى بعد أن حدد وجهته.. شارع الهرم.. حيث مجموعة من الأصدقاء القدامى أفلحوا فى تكوين فرقة جاز ناجحة.. فى الملهى الليلى قائد الفرقة يحييه «تحية وسلام خاص للزعيم».. فى آخر الليل التفوا حول المائدة والكئوس.. ساعات الصباح الأولى أمضاها ضيفا على أحدهم بمنزله.. قبيل الظهر كان بمكتب المدير الإقليمى للمجلة يوقع عقد العمل بإدارة المجلة فى باريس.. إجراءات سريعة.. مقعد بطائرة المساء.. من المطار اتصل بوالده الكاتب

الكبير.. عبارات سريعة واثقة: أبى.. وقعت عقدا للعمل فى باريس.. أحدثك الآن من المطار.. تحررت من كل همومى.. أشعر أننى مقبل على حياة ترضينى.. لن أكون فوق الحد.. أبدا.. لتكن رحلتك فى الصيف القادم إلى باريس.. دمت لى يا أبى..

البيت الصغير



أود لو أسأل سؤالا.. قالتها بنبرة متحدية وهى متكئة بكفيها فوق مقدمة المكتب.. وكان قد طوى المرجع فى يديه لما لمحها مقبلة نحوه.. نعم.. متململة قالها!.. يدرك أن لحوار أول أمس بقية.. يعرف فيها ذلك.. ويستطيع.. يستطيع دائما أن يصرفها عن إصرارها.. وبعد عدة أيام ستعود لتضحك من نفسها وهى تحادثه:

ذكى.. مراوغ .. أستغرق أنا فى الفكرة تماما.. أصر.. ثم تفلح أنت فى أن تصرفنى عنها لشىء آخر كالمتاهة أدخل فيه وأعود وقد فرت عزيمتى وسقط إصرارى على فكرتى لأكتشف أنك قد غررت بى ككل المرات السابقة. آه من هدوئك هذا!!

لكن هذه المرة تختلف.. تبدو قد فاض بها الكيل.. أعدت كل شىء.. سهرت على إجابات طلاب مادتها حتى فرغت من تصحيحها وسلمتها لكنترول الكلية.. حفزت أولادها وبناتها المتزوجين وغير المتزوجين بموعد تقريبى لرحلة تصييف تضمهم جميعا لأول مرة وعلى رأسهم رب العائلة.. رأبت أكثر من صدع بينهم.. مؤقتا لحين يلتئم الشمل! فكرة طيبة لكنه غير مستعد.. منذ يومين قال أوافق مبدئيا لكن دعينى أفرغ من مقالى الأسبوعى هذا.. بالأمس سألته تطئمن.. هل فرغت منه؟! وأجابها: مازلت مستغرقا فيه.. واليوم

تسأله : ماذا لو أنك اتخذت حقا من حقوق وظيفتك؟ إجازة تروح فيها عن نفسك وتأمنا فى انطلاقة نعالج من خلالها كل مشكلاتنا؟ مشكلاتنا قبل أى مشكلات تتناولها مقالاتك!! شعر فى مواجهتها بأنه أقرب مايكون من فوهة بركان تسترها قشرة أضعف من أن تستمر تكبت انفجاره.. لكنه يحاول بهدوء المتعامل مع لغم أرضى: والعمل.. المقال المعاند؟! وبنفس نبرتها المتحدية تجيبه: تستطيع أن تبعث به من هناك بواسطة مكتب الجريدة.

وفى استكانة مصطنعة يعقب، لكنك تعرفيننى.. أحتاج دائما لبعض الوقت حتى أتكيف ومكان جديد أحل به.. و.. هذا يعنى أنه قد تمر أغلب أيام الأسبوع قبل أن أجمع شتات نفسى وأخط كلمة فى مقالى.. حقيقة هى تعرف فيه ذلك.. تأملته بنظرة مشفقة عادت منها بحل يرضى الطرفين: نستطيع أن ننتظر حتى يمر الأسبوع فتكون انتهيت من تحرير مقالك بل وتم نشره بالجريدة أيضا.. واغتر فى هدوئها المشفق فحمل لسانه عبارة تترنح: لكنى من ذلك سأحتاج لمزيد من الوقت.. هنا احتدت: لا .. إذن المسألة ليست مسألة مقال معاند.. وانصرفت تمضغ عبارات غاضبة.

وضع قلمه وخفض الإضاءة على مكتبه.. عاد برأسه إلى مسند

كرسيه.. راح في سبحة، ياه.. مرت السنون سريعة.. كبر وكبرت «ليلى» لكأن البداية قريبة.. ابنة الأمس القريب.. يوم التقاها لأول مرة.. فى حفل عائلى دعى له... شقيقتها الوحيدة زميلة له تزف إلى عريسها.. كان صحفيا ناشئا نجاحاته مازالت ضئيلة.. العمل السياسى حلم عمره.. اختياره للزواج سيكون اختيار عقل.. امرأة مثقفة تتفهمه وتؤازره.. رآها وتعرف عليها دارسة للتاريخ.. معيدة فى الجامعة وتعد لدراسات عليا.. إعجاب متبادل.. احتضن القلب اختيار العقل توافق فى الميول والآراء.. فى كل شيء حتى فى فكرة إنجاب أطفال كثيرين.. هو وحيد أبويه وهى كانت تتمنى أن يكون لها أخ إلى جانب شقيقتها الوحيدة.. أن يكونوا كثيرين: قالتها: مادمنا أغنياء ونستطيع فلم لاننجب دستة أطفال؟! حسبها دعابة لكنها بالفعل أنجبت نصف دستة.. أربعة ذكور وأنثين.. تسعد باجتماعهم.. طيبة.. حنون.. مثابرة.. لاتكف عن نجاحات تحققها بالرغم من أية اعتبارات أو أعباء! لو لم تكن امرأة مثلها تفهمته وآزرته فى حب لتأخر كثيرا عن نجاحاته التى أحرزها وهى تحمل عنه أعباء البيت ومشاكله جميعها.. عاوده حوارهما الأخير لما بدت مستفزة من تسويفه.. وآخر عبارة نطقت بها قبل أن تنصرف غاضبة. لا.. إذن المسألة ليست

مسألة مقال معاند.. أطفأ كشاف المكتب وانسحب وراء ضميره إلى غرفة النوم.. ليلاى.. حبيبة عمرى.. كثيرا ماقصرت وأنت تتحملين رغما عنى.. العمل.. المسئولية ليس منها فكاك.. الساحة تعج بالمشاكل والمنغصات.. مثلنا فى الصدارة له دور مطلوب والتقاعس عنه هروب.. هذه المرة بالذات.. معركة انتخابية تحفها مخاطر جمة.. أتكون الصراعات هنا بينما أنا هناك فى الريف الإنجليزى أصطاف؟ ماذا أقول لهم؟ خاطرك عندى بالدنيا لكنها الدوامة قد ابتلعتنى..

كانت تسمع له ولضميرها المحب فى آن واحد.. تشجيها دفوع ضميرها فى صالحه.. ماهنت عليه.. بالرغم من كل شىء ترك قلمه وأوراقه وجاءك يعالج خاطرك.. ها أسمعت.. مازلت ليلاه حبيبة عمره.. حقيقة هى دوامة ابتلعته.. ماذا يقول لهم ودوره مطلوب.. مسئولية.. لانت.. تجاوبت.. لكن بيتنا.. أولادنا.. وبناتنا.. خذ عندك.. الكبرى راغبة فى الطلاق.. تأكدت لها علاقة مشينة لزوجها بزوجة صديقه.. يجب أن تكون لنا وقفة تنأى ببيتهم الصغير عن التصدع.. تحدث ابنتك عن طبيعة الرجل وتقنع زوجها بضرورة فض تلك العلاقة المدمرة.. و.. ولدانا الكبيران المتجاوران سكنا اتسعت بينهما هوة الخلاف.. زوجتاهما تحفران مقبرة للأخوة بينهما.. لابد من

بحث دواعى الخصومة بينهما وأسباب اللدد فيها.. لا أطيق أن أراهما على هذه الحال.. و.. الثالث ينتظر الموافقة على استقالته من جهة عمله المتميز.. سألته.. ماذا تريد.. فاجأنى.. يرغب فى الاستقلال بنفسه بعد أن يحصل على نصيبه فيما سيرثه عنا.. هكذا فى حياتنا؟ مطلوب منا أن نقدر نصيبه فيما سيئول إليه بعد مماتنا وننقده قيمته مالا سائلا! و.. الأصغر.. الخجول المنطوى عاد من عند صديقه بعد أن فرغا من الامتحان وقد أطلق لحيته.. يحرم ويحلل.. لم تجد مناقشاتى معه.. رأسه الصغير مشحون بقناعات غريبة.. والصغرى تحب!.. مراهقة تستوجب الاحتضان نحتويها أنا وأنت.. من يصدق أن كل ذلك يحدث لأولادنا؟ لكن.. الذنب ذنبنا.. انصرفنا عنهم بنجاحاتنا.. كفلناهم صغارا ولما شبوا سحبنا مظلة الكفالة فلسعت شمس الصراعات عقولهم.. يجب أن نعود.. نجمعهم من جديد تحت مظلتنا.

لكأنها أنفذت سهما من نار فى رأسه.. محموما راح يسقط على دورها.. تأخرت كثيرا فى إبلاغى.. أمور كان يلزمها الحسم من البداية.. آه.. وتلحين فى طلب إن أؤم هذه الترديات فى رحلة اصطياف.. تحسبين أنك قد استطعت أن تجمعينهم على رأى واحد؟

أبدا.. فلموافقة كل منهم على الرحلة غاية.. أستطيع الآن أن أضع يدك على غاية كل منهم من رحلتك.. فصغيرنا وجدها فرصة لمزاولة جهد الدعوة فينا ليخرجنا من الظلمات إلى النور!! والراغب فى نصيبه بالإرث عنا فى حياتنا سيروج لفكرته بين إخوته مجتمعين ليخلق قوة تضغط فوق إرادتنا. وسترين هناك تطاحن زوجتى نجليك المتخاصمين لتثبت كل منهما للأخرى فى غفلة منا أنها وزوجها يحظيان دون الآخرين بحبنا وتأييدنا لموقفهما وقناعاتهما.. و.. ولكنى.أرى أن ندعوهم جميعا للقاء ببيتنا أولا أو نعالج كل مشكلة على حدة قبل لقاء يجمعهم .. ها.. مارأيك؟ أقولك؟ دعينى أفرغ من مقالى ثم نبدأ ! التزامى المهنى والسياسى.

راغب فى الانصراف إلى مكتبه والعودة لمقاله.. انصراف يعوزه رضاها.. يتفتق ذهنه عن حيلة.. مارأيك يا أستاذة التاريخ لو تشاركيننى الرأى فيما أكتب؟ كان يتصورها مجهدة بالحد الذى ترفض معه غير النوم.. لكن راقتها الفكرة.. انصرفا معا إلى حجرة المكتب.. أضاء الكشاف.. جلست قبالته.. شمر عن ساعديه وراح يعرض لفكرة المقال.. انتخابات برلمانية مقبلة.. نزاهة الانتخابات وضماناتها هى القضية.. بداية أعرض عليك شكل الصراع على

الساحة.. رغبة حقيقية لدى الحكم فى النهوض ببنيان ديمقراطى راسخ.. من هنا كانت فكرة التعددية الحزبية وإفساح المجال لحرية الرأى.. مازالت التجربة وليدة.. الأحزاب بلا استثناء لم تبلغ اكتمال النمو.. محض صحف تترع بهوس فى الأفق غير المحدود لحرية الرأى.. آه. تعلمين بحكم أنك دارسة للتاريخ أن الاتجاهات الشمولية هى الضد الطبيعى للديمقراطيات.. فالشموليون لايؤمنون بالتعددية الحزبية ومايتفرع عنها.. على ساحتنا الآن القوة الأخطر شمولية.. تلك التى استقطبت صغيرك الذى نصب نفسه إماما لبيتنا، يحرم ويحلل! و.. المفترض واقعيا ألا تسمح القوى الديمقراطية على الساحة بأن تستفيد من ممارساها أية قوة شمولية ولكن.. العكس هو الذى يحدث.. فأى انفراجة ديمقراطية تستغلها القوى الشمولية وتحقق منها أقصى استفادة..

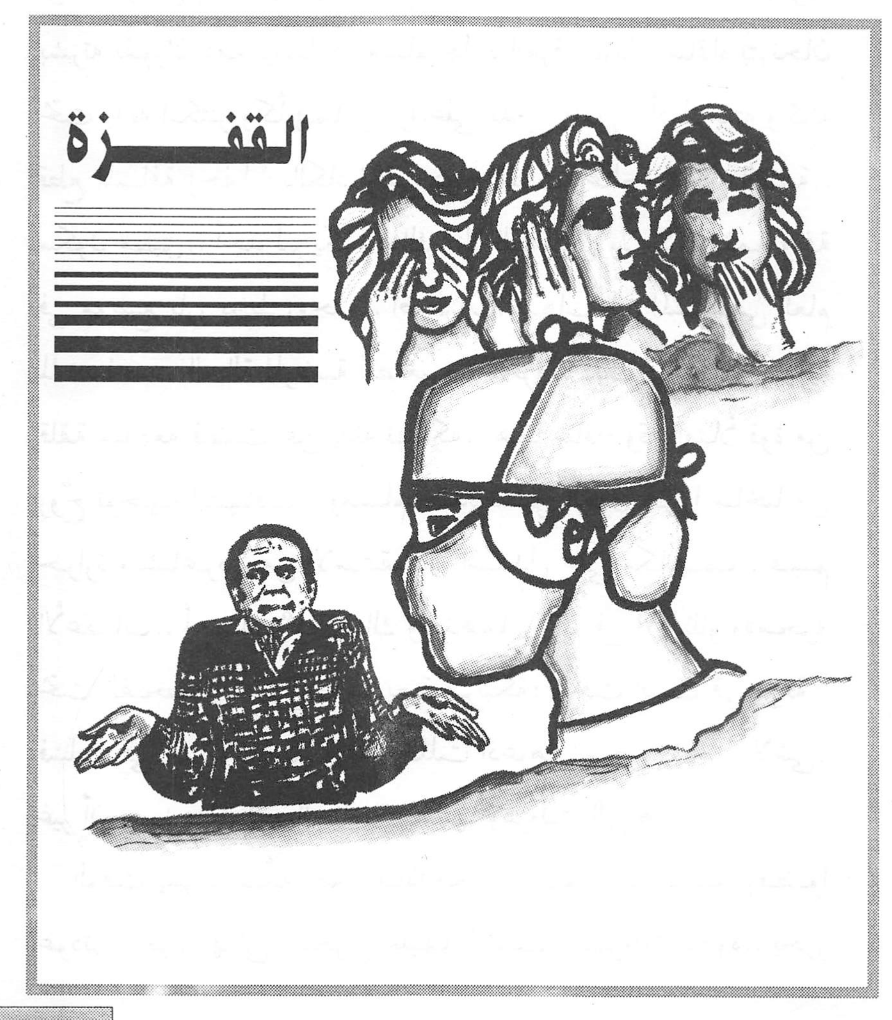
فى خضم الجدل الديمقراطى دخل الشموليون البرلمان واستقطبوا قطاعا عريضا من الجماهير يأس من الحل السياسى حتى لو كان ديمقراطيا! تصورى؟ أرى أن الانتخابات الحرة الآن تقتل الديمقراطية الوليدة فى مهدها! ستغلب الشموليين على قوى ديمقراطية كثيرة.. ستغلب الممارسة وتغرق المركب الديمقراطى؟!! هل مر عليك مثل



ذلك فى فصول التاريخ المختلفة؟ وتتحمس ليلى بالإجابة: ليس بالضبط.. منذ خوفو وهرمه حتى تاريخنا الحديث كان حكم الفرد.. لكل ديمقراطية فى بلدنا عفريت.. فى الملكية كان عفريتها السراى والفساد والنفوذ الأجنبى.. والآن.. هم الشموليون.. غريب موقف القوى الديمقراطية الآن.. أتقصد أن الإخلال بنزاهة الانتخابات تفرضه طبيعة المرحلة؟ من قبيل الحفاظ على الديمقراطية الوليدة وحتى تشب قواها وتتعلم كيف تحافظ على بقائها.. يعنى تحمى الديمقراطيين من أن يبتلعهم الشموليون صغارا؟! وينسجم من تعبيراتها.. يطربها.. ذكية زوجتى الحبيبة نابهة.. لكن تبقى المشكلة قائمة.. كيف نقول ذلك للناس؟! كيف نقول إن الديمقراطية تستدعى الإخلال بأحد أهم مكتسباتها الذى هو نزاهة الانتخابات؟ ها؟ أعرفت الآن مبلغ حيرتى؟ ابتسمت وهى تتطلع فى وجهه.. تطرح فكرة.. الأمر يلزمه سلسلة مقالات وليس مقال واحد.. تخاطب القوى الديمقراطية وجماهير الشعب و.. و.. تروقه الفكرة..

تمر ثلاثة أسابيع.. يوميا تشاركه أفكاره وتطالع مايكتب ومايرد به على كتاباته.. فى قلب ليلة وكانا يلتمسان الراحة لدقائق قالت وهى تعود برأسها إلى مسند الكرسى: ياه استغرقتنا سلسلة المقالات ونسينا

الأولاد والبنات ومشاكلنا؟ ويجيبها: حقيقة نسينا.. لكن دعينا نفرغ الآن من سلسلتنا.. وتعقب: أتعرف الدولة في نظرى بيت كبير.. بيت العائلة تتفرغ منه بيوتات كثيرة صغيرة.. لو عالجنا مشكلاتها لارتاح البيت الكبير.. ها؟ مارأيك؟ يجيبها: فكرة عظيمة تصلح لأن تكون موضوع مقالنا القادم.


القفزة

كانت محاولة جديدة للعودة إلى وظيفته.. باءت بالفشل.. رغم توقعه للرفض إلا أنه بدا وكأنه لم يحسب حسابه!.. تهالك.. احمرت بشرته بفوران دمه بينما تنز مسام جلده العرق باردا.. ساقاه يترنحان تحت بدنه المكتنز وكأنهما ارتكزا على قدمى طفل.. أدرك بيته وكأنه قطع المسافة زحفا.. بالكاد ارتقى درج البيت وعالج مدخل الشقة.. سكون مطبق.. أحد لم يكن هناك.. لا الطفلتين ولا الأم.. ثمة ورقة فى موضع بارز بخط زوجته.. اضطررت للذهاب إلى المستشفى العام لما تصاعدت الحالة المرضية للصغيرة «سحر».. دبت فى كيانه حيوية قلقة مندفعة فنضت عن بدنه تهالكه.. هما ساقاه وقد امتلأ قوة من روح توجهه المتهافت.. ومسام جلده تسيل العرق غزيرا ساخنا من حرارة مشاعره.. من الاستقبال استدل على مكانهما.. قسم الأعصاب.. أعصاب؟!.. هناك وجدهما.. الأم فى الانتظار و«سحر» تحت الفحص.. عبارات سريعة مرتبكة: راحت البنت فى توهة.. فشلت فى أن أستنطقها حرفا.. ظللت أدعوها.. سحر.. سحر.. لاشىء غير أن جسدها ينبض بالحياة.. حملتها وهرولت إلى هنا..

الوقت يمر.. تسأله: هه.. ماذا فعلت اليوم؟.. يجيبها: رفضوا عودتى.. قرار نهائى.. يخرج عليها الطبيب.. يهرولون نحوه.. يحرر

ورقة.. من دفتر معه.. حقن وكبسولات على الأب أن يشتريها من أقرب صيدلية.. ينتحى ركنا.. وزوجته تدس فى يده عدة جنيهات ليسعى خارجا.. ينطلق.. دهشة مريرة تتملكه.. الصداع ؟!.. محض صداع ينقلب لغيبوبة ؟!.. من أقرب صيدلية عرف أن الحقن المطلوبة شحيحة.. قالها الصيدلى: لها فترة غائبة عنا.. ابحث.. ربما وجدتها.. يحاول.. صيدلية وأخرى.. أخذه البحث بعيدا.. بعيدا.. عند مدخل صيدلية اصطدم بأحدهم.. اعتذر.. استوقفه.. «معتز» صديق قديم من فترة الدراسة فى الجامعة.. ياه.. فؤاد همام؟! مالك مضطرب..؟! ابنتى.. ابنتى فى غيبوبة .. صغيرة.. والحقن شحيحة.. أكاد أجن.. يصطحبه صديقه إلى داخل الصيدلية.. صيدلية شقيقه.. يقدمه له: فؤاد صديق عزيز.. الحقن الشحيحة لابنته.. أرجوك أوجدها له..

يدير الصيدلى قرص تليفونه.. اتصل بأكثر من زميل له.. أخيرا وجدها أرسل أحد معاونيه بسيارته يحضرها.. ابتلع فؤاد ريقه.. أخرج منديله يجفف عرقه.. استأذنه صديقه: لو لم أكن مرتبطا بموعد سفر لذهبت معك إلى مستشفى ابنتك.. انصرف معتز فى حين انشغل شقيقه بزبائن صيدليته.. وبقى فؤاد وحده ينتظر.. يتعجب من المصادفة.. صور وخيالات تجول بخاطره.. معتز هذا و«شلة» الجامعة..

وكان اليسار تقليعة الحقبة.. حتى الطلبة والطالبات أفنان الشجرات البرجوازية امتطوا الموجة.. بل صاروا من دعاتها!.. وهو.. فؤاد همام كان الفقر المدقع يدرس الفلسفة.. راقه التكافل بين أفراد الشلة.. التكافل فحسب.. لايمين ولايسار.. ذاته هى وطنه التعس الفقير.. وحلم عمره أن يقز قفزة فوق الحرمان ويتخطاه.. قفزة فاقدة معطياتها حتى أنه بات يحسبها قد سكنت رحم الحظ.. ولكن.. متى يفرغ الحظ حلمه؟!.. من الحلم والانتظار انبثقت العشوائية.. الاصطياد واهتبال الفرص.. وحده كان يعلم مواطن اغترار الشلة فيه.. عاشق للفلسفة.. عشقه لها ميّزه.. وجهه الوسيم المشرأب فوق هندامه الفقير.. صراحته.. بل مبالغته فى وصف الفقر الذى يحياه والمآسى التى تكابدها أسرته.. ولأنهم محض ممتطى موجة فقد حسبوا فيه وليد اليسار الذى يحمل كل جيناته الوراثية.. كفلوه.. قدموه على أنفسهم.. ومرت سنوات الجامعة سريعة بين مظاهرات ومواجهات مع الأمن كثيرة.. معظمهم تخلى عن التقليعة ونفر قليل اندمج وواصل خارج الجامعة.. من الفريقين أصدقاء استمرت علاقته بهم.. فى انتظار ضربة الحظ.. إلى أن يضع حمله لابد وأن يظل محسوبا على ذوى القدرة من معارفه.. حتى بعد تعيينه فى وظيفة مدرس.. «معتز»

كان يجود عليه بالكثير.. من أسرة غنية.. كان الأسبق بالانضمام إلى التنظيم.. قدمه لعناصر كثيرة من تنظيمهم.. من كل المهن و.. حضر بعض اجتماعاتهم لكنه كان أجبن من أن ينضم بشكل تام.. كان يحب والحب أوجد بداخله الحرص.. ظل في منزلة التعاطف مع التيار.. تزوج من خيرية.. زيجة متواضعة.. شهور قليلة مرت ووجّه الأمن ضربته للتنظيم.. كانت المتابعة الأمنية قد رصدته.. سنة كاملة استغرقتها التحقيقات.. اتهامات بالعمالة لدولة أجنبية والعمل على قلب نظام الحكم!.. و.. أجارته أقوالهم وأقواله وكونه ليس عضوا عاملا في التنظيم.. مازال يذكر بعض أقواله التي منعت عنه تعاطف ومدد عناصر اليسار حتى آخر العمر.. قد يكون لي في أي شيء إلا السياسة.. لايمين ولايسار ولاشغلت خاطري يوما بدولة وحكم وشعب.. أمور لاتهمني في شيء.. قولوا عني إنني أناني أفقدني العوز كبريائي.. حسبي أنني خلقت تحت الحد الأدنى للإنسانية.. أتشبث بالحياة.. كل هؤلاء المنظرين الواهمين لايخدمون دولتي التي هي ذاتي فحسب.. لكن ذاتي المحرومة دان لها أن تستغل خبالهم فاستغفلته في شلة الجامعة وفي التنظيم خارج أسوارها.. أقسم بأن خاطري ماشغل يوما بغير نفسي!!



وصل معاون الصيدلى بالحقن الشحيحة.. قدمها له.. رفض شقيق معتز المقابل ـ ثمنها.. انصرف فؤاد.. طريق العودة طويل.. الحقن جاءت مجانية.. تاكسى إذن.. مازالت الذكريات تتداعى: بعد سنة التحقيقات خرج مسرحا من وظيفته.. عاش وخيرية براتبها من وظيفتها و.. جود صديقه «وسام» من الفريق الذى تخلى عن التقليعة فور تخرجه فى الجامعة.. برجوازى أصيل.. جده «الأرناؤوطى» كان باشا بشارب أبيض كثيف وصورته تحتل مساحة نصف حائط من صالون قصرهم.. فى سنوات قليلة ترأس «وسام» أحد فروع شركة والده.. طالما استحب أن يعيد عليه فؤاد ذكريات سنة الاعتقال وأقواله فى التحقيق.. يقهقه من أعماقه.. قهقهة باشا تتسلل إلى أعماق فؤاد موجات أسف وحسرة على ما آلت إليه ظروفه.. أراجوز هو؟! أو قرد مسلسل بمدد «وسام» ؟!.. و.. كانت فرصة العمل بالبلد الخليجى.. وجدها ضربة الحظ المنتظرة.. السنوات تمر ومدخراته وخيرية تنمو تنمو.. اكتفيا.. ثروة وولد وبنت.. لن يعود أراجوزا يتلهى به «وسام جلال» ولا محروما يفقده العوز أى قدر من كبريائه.. عادا ليجدا فرصة أوفر لاستثمار ثروتهما.. شركة توظيف الأموال والعائد الشهرى الكبير على مدخراتهما.. وضعا كل ماعادا به من مال.. عيشة هنية..

بلا عمل ويحصل على عائد شهرى يفوق رواتب عدد من كبار موظفى الدولة.. وفجأة.. يتبدد العائد بل والرصيد.. خصومة بين الحكومة وشركات التوظيف.. ماعاد يملك شيئا.. عادت خيرية لوظيفتها بينما رفضته وظيفته.. من راتبها يعيشون.. ودعم «وسام جلال» مقابل دوره الأراجوزى فى حياته.. يسائل نفسه: إلى متى؟!.. و.. يتوقف التاكسى أمام المستشفى.. يهرول وخيرية نحو غرفة الطبيب رئيس القسم.. ينصحهما: ابنتكما فى حاجة لجراحة عاجلة.. طبيب واحد الذى يقدر عليها.. ذات الطبيب الأشهر عليكما به فالسرعة مطلوبة..

كانت بدايات الصيف.. الطبيب الأشهر يتكالب على عيادته الأثرياء من كل بقاع الأرض فيفتح صندوقه لماليتهم ويكرس لهم شهور الصيف.. لا دور لسحر عنده قبل أواخر الصيف.. دواؤها حتى يحين وقت عرضها عليه مسكنات.. محض مسكنات.. فى ليلة من قلب الصيف صعدت روحها.. ماتت سحر.. خيم الحزن وباتت رحلة العمر الفائت قصيرة تمر بخاطر فؤاد مرات ومرات فى اليوم والليلة.. لعبة اليسار واليمين المخبولة.. غربة السنين والمال الطائش.. الأراجواز المضطر.. الحياة.. الموت.. سحر.. و«بعد يافؤاد ياهمام؟!» هو الحظ قد

وضع حمله الكئيب!!..

اعتكف بمنزله.. نضبت دموعه.. تحجرت أذيالها في عينيه.. مظاهر الهوس في وجهه.. استطالت لحيته.. عف الطعام.. بالكاد تطعمه خيرية لقيمات.. يشرد ويعود إلى هذيانه.. عبارات متفرقة.. اليسار أحق؟!.. اليمين أصوب؟!.. «إحنا يسار والا يمين؟!..

أراجوز.. أراجوز؟! لا أراجوز بعد اليوم؟!.. «مش عايز حاجة.. مش عايزة حاجة».. تحاول خيرية أن تستعيده.. لافائدة.. ذات صباح تسلل خارجا.. مر بقبر ابنته سحر في طريقه إلى «حوش الأرناؤوطي».. منذ شهرين تقيم به أمه وأبوه بإذن من وسام جلال الأرناؤوطي.. كان قد صدر أمر بإزالة منزلهم العتيق.. يومها سأله وسام: لماذا لاتستضيفهما بمنزلك وخيرية؟.. أجابه: ألا يكفي خيرية عالة واحدة هي أنا؟!.. وهناك .. عند مدخل حوش الأرناؤوطي تتلقفه أمه في صدرها.. تربت على شهره.. ينتقل إلى أبيه.. يقبله في جبهته.. يطل العجوز في وجه ابنه.. إطلالة حسرة.. يفترشون أرضية المدخل.. يتحاورون.. عبارات بطيئة.. تنسحب الأم لتعود مرة أخرى وقد أطلقت البخور.. تبسمل وتحوقل فوق رأس ابنها.. في المدفن المقبل يوارون جثة أحدهم التراب.. نفر قليل من حوله يتهامسون.. لم تفارقهم عينا فؤاد حتى

ردموا القبر وانصرفوا.. يعود لهذيانه.. مش عايز حاجة.. مش عايز حاجة.. احنا يمين وإلا يسار؟!.. تشاغل عنه والده.. مالت الشمس للغروب ومازال يفترش الأرض مكانه.. عادت إليه أمه تحدثه:

ـ مالك ياولدى؟

ـ لاشىء يا أمى..

ـ آخره الحزن أيه؟.. كلنا سنموت..

ـ نعم يا أمى.. كلنا سنموت..

ـ لتعد إلى بيتك.. مازلت مسئولا عن زوجتك وولدك..

ـ لا يا أمى.. أنا فى دنياهم عبء ثقيل.. حرام أن أثقل عليها أكثر.. إننى أرحمها وأوفر راتبها لها ولابنها..

ـ لتعمل ياولدى..

ـ ماعدت أصلح لشىء يا أمى..

ـ .. وعاد لهذيانه.. مش عايز حاجة.. مش عايز حاجة..

الأخـــوة تكـــافل



تحول مقهى الميدان لصالة سيارات.. احتلت المرسيدس والفولفو والبولونيز مكان الكراسى الخشبية المبطنة بالقش والطاولات الرخامية بعرض الطوار أمام الواجهة.. وهناك بالداخل..مكان النصبة حيث الغلايات والنرجيلات انتصب مكتب فخم عريض يحوطه أنتريه وثير.. من الواجهة الزجاجية يتبينه وشخصا فى ملابس أفرنجية أنيقة له وجه أبيض مستدير وشارب يبدو من هناك كثيفا مصفرا.. يجلس فى استرخاء فوق كرسي ضخم دوار.. فى نفس الموقع تقريبا.. موقع عم خليل العجوز وراء النصبة وهو يتصبب عرقا وذيل جلبابه البلدى مجموع وممرر فى سيالته كاشفا عن ساقين معروقتين بالدوالى.. مرض «الوقّيفة» على حد قوله!.. ياه.. شتان بين الحالين.. كانت جزيرة تضم عشرات الكيانات.. ثلة تتاخم ثلة.. من ركن هناك تصدر «كش ملك».. ودحرجة النرد فوق سطح طاولة تتوسط الطوار.. وطرقعة قواشيط.. رائحة التمباك وتقادع الماء داخل النرجيلات.. وحوارات فى شتى مناحى الحياة.. الرجل والمرأة.. التعليم والجامعات.. اللائحة القديمة والجديدة.. مظاهرات الطلبة.. وسينما «رد قلبى» و«بداية ونهاية» و«القاهرة ٣٠».. ومسرح «السبنسة» و«سكة السلامة» و.. السنون تمر فتجزئ الحياة لمراحل.. لكل مرحلة حواراتها.. النكسة

ووقف الحال والبوار.. الشهداء.. المظاهرات .. المعتقلات.. الحوار همس.. النصر.. العبور.. تعود الحوارات عالية الصوت.. سينما «المذنبون» ومسرح «كلام فارغ» و.. سيناء تعود.. منابر.. ديمقراطية.. أحزاب.. انتعاشة.. رخاء قادم.. أمريكا ياعم.. البعض يذكر بمشروع مارشال.. شيء مماثل سيضعنا على الطريق.. وتعود الحوارات لترتبك.. والهمس.. قلاقل قتل.. كيف أصبحنا؟.. ماكنا لنقتل حاكما؟!.. قل عدد رواد المقهى.. المجموعة تقلصت.. ونفر قليل.. عيون ذاهلة.. والحوارات ثقيلة كئيبة.. الأسعار.. غلاء.. صاحب المقهى رفع أسعار المشروبات.. بعضهم يسخر من نفسه يوم تفاءل «اللى اغتنى اغتنى.. قطار الحظوظ مر».. الكرة.. الأهلى والزمالك.. لا.. الفريق القومى.. سينما «حتى لايطير الدخان» ومسرح «ريا وسكينة».. وإيه.. «العيال كبرت» و«الواد الممثل اللى عامل زى الشغالة القبيحة.. ألفاظ سوقية رذلة».. ياه.. تفرقت الكيانات.. هدمت النصبة واختفت الكراسى الخشبية.. فرغت الجزيرة من الحوارات والصخب.. سكنتها السيارات.. ورجل له وجه أبيض مستدير وشارب يبدو من هناك كثيفا مصفرا.. وبقيت عند «ونس عبدالودود» ذكريات عزيزة تمر بخاطره كلما عبر الميدان متوغلا فى باطن الحى.

يعشق الليل.. فى السنوات الثلاث الأخيرة قلما التقى وشمس الصباح .. بعد الفجر ينام.. إذا استيقظ بعد الظهر أكره نفسه على النوم.. يظل يتمرغ فى فراشه.. تحاصره الضوضاء.. تغلبه.. يعاتب النوم الذى أسلمه ليقظة تنغصه.. كاسيتات الجيران المتاخمين من كل جهة.. أصوات غريبة. وكلمات أغرب.. دفوف.. وطبول بآخر طاقتها تزلزل كل شيء..يعرف أنه لافائدة.. الناس ملت التعامل مع عقولها ووجدانها.. تفر من العقل والوجدان.. تسحقهما بأصوات أعلى تطغى.. أقربهم الفتاة السوداء.. كان قد رمقها من وراء «شيش» نافذته.. فى شرفتها المتأخمة ومسجلها يصدح وهى ترقص فى هيسيترية.. ليس فى ذلك شيء من الرقص لكنها جادة وكأنها فى مهمة رسمية.. تصفق.. تصرخ.. آه.. أواه.. تغنى بصوت قبيح!!. يوصد زجاج كل النوافذ.. يعد كوبا من الشاى.. يحضر كتابا من مكتبته.. يتمدد فى فراشه.. يطالع فى كتابه.. يصد بقية الصوت المتسلل.. فهو مع بوشكين، دوستويفسكى. الرافعى، إدريس يستطيعون أن يجتثوا أصبعا من قدمه دون أن يدرى!!.. وتعود «أميرة» زوجته من عملها.. تهرول نحو الحمام.. تتوضأ.. تدرك صلاة الظهر قبل آذان العصر الوشيك.. تعد المائدة.. الطعام وبعض أخبارها.. حوادث الطريق

والمصلحة.. الأسعار وغياب بعض السلع الأساسية.. حوارات زملاء وزميلات المكتب.. سفالات البعض.. الرشوة.. المداهنة.. التسلق.. ماعلينا.. الحياة صارت لاتطاق.. هه.. تعود إلى المطبخ.. تنشغل هناك.. ثم.. تمر بالحجرات ترتب الأشياء.. تجلس فى الانتريه أمام التليفزيون تتابع مسلسل المساء.. بداية الليل. حنينه إلى الطريق.. الرغبة فى الانطلاق.. يخرج وبعض ذنب عالق بنفسه!.. يعالجه كالمعتاد.. ستجالس أميرة التليفزيون ككل الناس وبعد وقت تنام لتصحو فى السادسة صباحا لعملها.. بعض المرات ورغم كل شيء يواصل معه الشعور بالذنب نحوها فيظل يقارعه الحجة وهو يخطو حثيثا نحو الميدان إياه ليمرر نفسه بموقع مقهى الذكريات الذى أصبح معرضا للسيارات ويتوغل فى الحى القديم فتتملكه روح معاندة تدهس شعوره بالذنب نحو أميرة وتتبنى رغبته فى الانطلاق.. بل حلمه فى انطلاقة بعيدة بلا عودة.. لكنه يعود كل يوم!.. يعود فى ليل الليل.. تكون قد تجمعت فى خياله خطوط الصورة التى سيرسمها.. نعم.. فهو.. يقرأ ماتبعث به المجلة إليه من قصص ليستلهم مايناسبها من رسومات تنشر معها فى المجلة.. هذا عمله.. فنان.. رسام.. يمضى بقية الليل يرسم.. وبعد الفجر ينام.. يسلم النهار لأهل

النهار والصخب!!..

يعذبك أنك تعرف الحقيقة وقتما تود أن تعرفها!.. هكذا يحادث نفسه.. بوليسى.. مباحثى.. أما كنت تود أن تنضم لكلية البوليس.. آه لقد خسروك بلا شك.. كم من التصرفات والأفعال اكتنفها الغموض وفككت طلاسمها!.. ويا للسخرية.. أن جميع من كشفت لهم عن حقائق تخصهم آثروا معايشة الوهم وأغمضوا أعينهم عن حقائقك!!.. أولهم أنت نفسك!.. نعم.. زمان.. يوم تعرفت بأميرة.. جميلة.. أنيقة.. راقتك.. مستكينة.. طيبة إلى حد يقترب من السذاجة.. أحسست أن وراءها قضية.. أجلت البحث ورحت توغل فى قصة حب.. هى نفس توقعاتك.. أسرة فقيرة الجهل سيدها.. ولو؟!.. ماذنب أميرة؟.. وضعت أصابعك فى كف الفراش الخشنة.. كهل خبيث.. عدت تبحث فى القضية.. توصلت للحقيقة.. مباحثك أكدت أنها كانت قد غرر بها.. أميرة؟!.. نعم.. ساذجة.. كان يجب أن تتوقف.. تعود عنها.. لكنك واصلت.. كاشفتها وكاشفت العجوز.. ركع عن ركبتيك يقبل يدك.. عدت طيبا عطوفا.. احتويتها.. ضممتها.. فزت بها.. نعم فزت فما كانت غير ساذجة غرر بها.. لكنها تأثرت بالتجربة.. تخاف كل الناس.. تخاف أن يقترب

منهـا رجل أو يجاملهـا.. تحبك.. عـاد الفـراش العـجوز يستـثيـرك.. يستفزك حتى تفر بعد أن فاز بعقد زواج لابنته منك..

يأتون من خلفك.. أشقاؤها.. يستحثونها أن تختلق أزمة فيخلصون ممن غسل عارهم!.. زعيمهم وزوجته.. آه منها زوجته.. يوم وقع نظرك عليـهـا قـرأتهـا.. امـرأة لعـوب.. طلسم آخـر.. رحت تفكفك صلبـان الطلسم واستفهاماته.. وضحت.. عشيقة رجل غير زوجها.. جمعت أدلتك المادية عليها.. يوم جاءك في هجمة ضروس قدمت له أدلتك على زوجته.. قاطعة كانت.. أعرف أنك كنت تود أن ينشغل بحقيقة نفسه وزوجته عنك وزوجتك.. لكنه أغمض عينيه وواصل يقاتلك وزوجته الفاخرة تصعد من استفزازه عليكما.. أصبحوا كثيرين وصرت وحيدا يتنازعونك.. تسأل الآن وبعد كل هذه السنين في الحرب الضروس: ماذنبي؟.. أما كنت أرحت نفسي في البداية؟!.. وأين أنت الآن من البداية.. أسير أنت.. كل يوم تضيق عليك حوائط محبسك الأبدي.. ظللت تحفظ لها استمساكها بك.. لمن تدعها.. لشماتتهم أو الضياع من بعدك؟.. ومع ذلك ماعدت بقادر على أن تحبها.. بل أنك صرت تمقت فيها اتفاق ملامح وجهها وشقيقها الديوس المتغطرس.. تعذبك آثار محنتها على نفسها.. ماجدوى التفكر في

ذلك؟.. آه.. ثلة المقهى كانت تفرج كل هذه العذابات.. تبددها الحوارات.. اليوم كل إنسان انصرف لذاته.. جزيرة مستقلة.. الاستقلالية هذه لاتعذب أحدا قدر ماتعذبك.. الأصدقاء المثقفون تاهوا.. والمقهى احتله الرجل ذو الشارب الكثيف المصفر وسياراته.. والمقاهى الأخرى فى باطن الحى تضم الشغيلة والجهال.. أناس فى توهة.. لكن ما باليد حيلة.. فى ذلك الحى خطت أمى التركية الحنون خطوات فى المرات القليلة التى خرجت فيها من المنزل بصحبة أبى.. وهناك على مقربة من المقهى يوجد الفرن البلدى.. كنت أصغر أشقائى فكانت على عاتقى تقع مهمة توصيل صوانى القرع العسلى بالبشاميل والبطاطس بالبط والأوز.. ياه أتشمم تلك الروائح الآن لكنى عاجز تماما عن أن أستجمع وجه أمى.. طالما ترفعت عن أن تؤخذ لها صورة!.. و.. و.. بيوت أشقائى متفرقة هنا..

ما أحوجك اليوم لإطار اجتماعى يحتويك.. على ذلك استقر رأيه.. على الطوار أمام المقهى.. هناك فى باطن الحى.. يحادث نفسه: أعرف نفسى جيدا.. ترفض أن أكون جزيرة منعزلة باستثناء ساعات الرسم.. غبطة الانفراد بفكرة لصورة أرسمها تضمحل فور الانتهاء من عملى.. أعود عاريا كشجرة تساقطت أوراقها فى الخريف.. أتوق

لآدمى أكفله ويكفلنى.. معنويا.. وآه لو كانت صحبة.. حوارات.. رأى هنا وآخر هناك.. لكنك تتمنى شيئا ندر.. الناس ليسوا فى توهة بإرادتهم.. دنياهم صارت وكأنها قطعة من القيامة.. أحد لايعبأ بأحد.. نفسى نفسى.. إنهم يفرون من بعضهم.. يحتاجون لكل الوقت.. أكثر من عمل فى اليوم لسد الرمق.. هناك من لايرون أبناءهم غير نائمين.. الغربة والعزلة أصبحت داخل البيت الواحد.. فى الغرفة الواحدة.. تسألنى لماذا؟.. أنا؟!.. قلت إنها قطعة من القيامة.. «كل واحد معلق من عرقوبه».. تجوع فتموت وحدك.. تمرض فتموت مادمت لاتملك.. القيمة الوحيدة التى وجدناها فى الرأسمال الحر.. قتل الكفالة حتى إذا كانت لوجه الله!! أرأيتهم يتسولون العلاج والكساء على صفحات الجرائد؟.. غابة إذن؟!.. مالى وألفاظك ومصطلحاتك؟.. قل ماشئت وبالأسلوب الذى تفهم مادام يؤدى الغرض.. ياه أول مرة يأتى مسجل المقهى بأغنية «محترمة» مين أنا.. عايز أعرف مين أنا.. ليه أنا.. عايز أعرف ليه أنا.. الله يرحم العندليب.. يحبه.. ما التقى به يوما لكنه على الدوام يشعر أنه واحد من عائلته.. يذكر له جملة من حوار تليفزيونى.. كان المذيع قد سأله.. هل العمل ضرورة مع ظروفك الصحية؟.. أجابه: إخوتى،

عائلتى.. أريد ألا أحوجهم لأحد من بعدى.. بكاه يوم مات كما بكى أمه وأبيه.. هه.. صياح وجلبة هناك بمحاذاة المقهى.. من عند جيرانهم فى البيت القديم.. بيت العائلة.. هرول نحو البيت.. ماذا هناك؟! العم حسنى تعيش أنت.. «كوم عيال».. الله يرحمه.. كان صول فى البوليس.. نقاء وطهارة يد.. عاش نظيفا ومات نظيفا!.. حب الناس كل القيمة.. لكن.. أين هم الناس؟!.. يعرف صولا آخر بالحى.. مصاص دماء.. امتلك عدة عمائر وسيارة أجرة.. والحاج راح والحاج عاد!!..

الواجب يلزمه أن يبقى إلى جوار أسرة الصول حسنى.. قصر الليل فى سرد مآثر المرحوم.. مع إشراقة الصباح دبت الحركة فى البيت.. أشقاء الصول حسنى ونفر من الجيران.. تجهيز المتوفى.. أحد لم يضع يده فى جيبه!.. أشقاء حسنى موظفون بسطاء.. المرأة زوجته تولول وتتطلع فى وجوه الحاضرين.. كأنها تستحثهم: من يرمى بياضه؟!.. الأسطى سعيد السباك تفهم الموقف.. أنهى كل شىء.. الكفن..المغسل.. التربى.. كان «ونس» قريبا منه دائما.. أدرك كم هو الموت مكلف!.. إن غياب عزرائيل عن بقعة ما يغفل أهلها عن حقيقة تصاعد تكاليف الموت.. حتى الموت صار فوق طاقتنا!!.

فكرة الموت شغلته.. هل تملك تكاليف ميتتك؟!.. أو أحد من أشقائك؟.. هب أنك مت الآن.. أو أحدهم.. هل سيقف الباقون هكذا ينتظرون من يرمى بياضه؟!.. لا .. لابد من صيغة أذن.. تكافل الأخوة ولو فى الموت.. راح يحاول.. إن مجرد اجتماع الأخوة بمكان فى وقت واحد صار معضلة!.. أمر جعله يتذكر منذ كم سنة لم يلتقوا جميعهم فى وقت واحد؟!.. سنوات كثيرة.. رغم أنهم يقطنون ذات الحى.. وهو وحده الذى يقيم خارجه!.. أحدهم تحتكره زوجته والثانى يعود من وظيفته لعمل يستهلكه وكبيرهم متزوج من اثنتين يلزمه أن يكون الأسبوع شفعا.. ثمانية أيام أو عشرة!.. والأخت تكافح وزوجها لتجهيز ابنتها العروس وتعليم أبنائها الأصغر.. طاحونة!!.. أخيرا وبعد جهد التقوا.. طرح فكرته.. ميتة الصول حسنى وموقف زوجته وأشقائه.. ليكن لنا صندوق من مساهماتنا لحالات الوفاة.. لابد من متجمد لطارئ الموت.. اتفقنا؟... اتفقنا.. ثلاثة جنيهات من كل منكم عن الشهر.. ويمر الشهر وراء الشهر.. يلهث وراءهم.. أحدهم يفر منه كفراره من هاجس الموت.. صار رمزا لذلك الموت الذى يستبعده كل منهم عن نفسه.. كما أن الدنيا تبتلع كل مايحصلون عليه فيها.. أيقن أنهم تحللوا من اتفاقهم.. عليه أن يخرج من هيئة

مبعوث عزرائيل هذه.. لاصيغة للتكافل فى هذا المجتمع.. وهو الذى كان يفكر جديا فى أن يعرض عليهم فكرة صندوق آخر للتكافل فى حالات أخرى.. المرض.. زواج الأبناء.. ضيق ذات اليد.. كل ظروف الحياة!!..

ولأن فكرة الموت مازالت تشغله ففى طريق عودته ليلا استقر فكره على أن يوفر وحده لميتته هو فحسب.. كان صوت ينبعث من مكان مافى طريقه.. صوت عبدالوهاب: جايين الدنيا مانعرف ليه.. ولا رايحين فين.. ولاعايزين إيه.. مشاوير مرسومة لخطاوينا.. بنمشيها فى غربة ليالينا.. مشاوير.. تلاشى الصوت.. عاد لبيته.. احتواه مرسمه.. كانت الصورة التى يرسمها لرجل راح فى توهة..

دعوة شخصية



اختمرت الفكرة برأسه.. ماعاد ينقصه سوى الأسلوب الذى سيصيغ به الدعوات.. والورق.. أفخر أنواعه.. والأظرف القيمة التى ستحتويها.. إنهم ملوك ورؤساء دول.. زعماء.. أما عن الأسلوب فحتما ستسعفه قدراته اللغوية وهو المصحح بالجريدة الرسمية الأولى.. وعن الورق والأظرف فلا سبيل لتدبيرها سوى جولة متأنية بوسط المدينة ومكتبات منطقة الفجالة.. عاد من جولته منهكا.. قبالة مدخل شقته ينقل فى رفق مجموعة الأظرف والورق من يمناه ليسراه وكأنها فتيل قنبلته التى سيفجرها لتفرغ يده اليمنى لمعالجة الباب.. على سطح المنضدة وضعها بعد أن سحب منها ظرفا.. يقربه من وجهه.. يكاد يلامس عدسات نظارته السميكة.. يعيده إلى مكانه باستحسان واضح.. لعله أفخم نوع.. إنهم ملوك ورؤساء دول.. زعماء..

بقيت الصياغة.. المخاطبة أولا.. لكل مايناسبه.. جلالة ملك دولة.. جلالة سلطان دولة.. فخامة رئيس دولة.. سيادة الأخ رئيس الجماهيرية.. سيادة أى حاكم..

تحية تقدير وإعزاز.. وبعد...

يدعوكم محرره بصفة شخصية للقاء مهم يخص شئون حكمكم فى الساعة (..) من يوم (..).. ولو أن اللقاء ملح وضياع اليوم

الواحد لايقدر بثمن إلا إنه قد ترك مدى شهر تقديرا لمسئولياتكم وتدبير أمور تشريفكم، علما بأن موضوع اللقاء يستلزم الحضور الشخصى فى إطار غير رسمى وغير ملفت، ولعل ذلك يستدعى منتهى التواضع من قبل سيادتكم.. ولايعلم أضرار تخلفكم عن الحضور غير الله.

توقيـــع

المخلص / أمين عبدالمعطى

مواطن ـ عربى ـ مصرى

القاهرة ـ ميدان الكرامة

ش الأحرار ـ منزل الحاجةوحدة

وحرصا على ألا تسقط من حساباته إحدى الدول المقصودة فقد استعان بالأطلس يحصى من خلاله العدد اللازم من الدعوات ويسجل وجهة كل منها على ظرفها.. وما أن انتهى من ذلك حتى راح يراجعها.. تطابقت عددا ولكنها مازالت تنقصها دعوة اليمن الجنوبى.. كيف؟! يعاود المراجعة.. آه... لقد وجه دعوتين لليمن الشمالى.. تزامنت سعادته باكتشاف الخطأ وسخريته من واقع التقسيم فرفع إحدى دعوتيه لليمن الشمالى وأخذ يمزق فيها وهو يبكتها

فرفع إحدى دعوتيه لليمن الشمالى وأخذ يمزق فيها وهو يكتها وكأنها السبب فى جعل اليمن قسمين.. أليست كلها يمن؟!

وفى صباح اليوم التالى قام «أمين» بتوزيع دعواته على صناديق البريد بالمناطق المختلفة خشية أن تصب جميعها فى مكتب واحد إذا ما أودعها صندوقا واحدا فتثير انتباه أحدهم فيتصور فى نفسه حدا من النباهة واليقظة يعزز وضعه أن يبرزه لرئيسه الأعلى فتظل الدعوات تتأرجح بين الجهات الرسمية المختلفة لتعطل وتمنع من السفر ويحبط بذلك سعيه ومنشوده.. إنها موجهة لملوك ورؤساء دول.. زعماء..

شعر بارتياح بعد أن فرغ من مهمته.. بوضع آخر دعوة فى صندوق البريد القريب من مبنى الجريدة التى يعمل بها.. صعد إلى مكتبه بعد أن وقع بالحضور.. زملاؤه ينظرون إليه فى دهشة وهو يمر أمامهم كالمنوم.. سمع همسا : «لعل الحالة عاودته».. وما أن استراح على كرسيه حتى سمع صوت أحدهم يدوى فى أذنيه.. لماذا تأخرت يا أستاذ أمين؟ مقال رئيس التحرير ينتظر.. هاهو أمامك على المكتب.. انكب على المقال يراجعه دون أن يلتفت نحو زميله.. التوازنات بالمنطقة.. حرب الخليج الممتدة.. لمصلحة من؟.. آلاف من القتلى.. إلى متى؟ هل من حد للمأساة؟!

زملاؤه يتلفتون نحو بعضهم البعض.. وصلتهم عبارات همس بها: «كله سينتهي.. بعد شهر واحد سأنهيه». وسرعان ماانسحب أحد زملائه في هدوء ثم عاد بصحبة رئيس التحرير الذى توجه مباشرة نحو أمين يدعوه للانصراف بإذن خاص منه وله حرية العودة وقتما يجد نفسه قد استراح تماما.. تأثر أمين من ذلك.. استوعب ظن زملائه فيه فالتمس من رئيس التحرير أن ينتقل معه لمكتبه..

في مكتب رئيس التحرير جلس أمين فى مواجهة الرجل يؤكد له سلامة أحواله النفسية واستعداده للعمل.. ماكنت صاحب حالة تعاودنى.. إشاعة قديمة أطلقها أحد زملائى.. جندت بالجيش قبل حرب يونيو ١٩٦٧ كضابط احتياط.. عينت بعد تسريح دفعتى بالجريدة.. تزوجت شقيقة زميلى.. لم ننجب أطفالا.. جاءت نتيجة التحاليل الطبية فى غير صالحى.. أحالت حياتى جحيما.. استدعيت مرة أخرى قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣.. أصبت فى المعركة كانت الإصابة فى رأسى.. عدت إلى عملى بعد شفائى وكل ماتبدل فى ملامحى هو أننى استخدمت هذه النظارة الطبية بأمر الطبيب.. لكن.. كانت هناك أحداث أخرى.. فوجئت بعد شفائى بوفاة شقيقتى وزوجها فى حادث سيارة.. شقيقتى الأكثر قربا من قلبى وزوجها

صديق عمرى.. تركا طفلتين صغيرتين.. كانت زوجتى الحائل الوحيد بعصبيتها وأنانيتها المفرطة دون أن أستحضرهما لمنزلى وأشملهما برعايتى.. تولاهما عمهما.. وجدت أننى مادمت قد فقدت وسيلة فعلى بالأخرى وهى أن أتنازل عن نصف ماورثت عن والدى.. وبالفعل تنازلت.. لم لا والحرب علمتنى الكثير.. طلبت زوجتى الطلاق.. طلقتها فراح شقيقها يشيع بين زملائنا فى العمل أن إصابة الحرب قد تركت أثرها على عقلى فرحت أبعثر فيما أملك وطلقت شقيقته.. وصدقوه..

وماحدث أخيرا أثناء مراجعتى للمقال أمر طبيعى.. أليس من الطبيعى أن نمقت الحرب ونلعنها فى صرخة.. فى همسة مع نفسك مادمت عاجزا عن أن تمنعها!! إن المقال ذاته همسة فى أذن العالم التى تستوعب ملايين الهمسات فى الثانية الواحدة تختلط ببعضها فيعجز عقل العالم المتحجر عن أن يتفاعل مع إحداها.. تضيع جميعها ويستريح أصحابها لمجرد أنهم قالوا.. همسوا!!

عاد أمين إلى مكتبه.. كل أسفه على ماضاع من وقت كان من الأجدى أن يعايش فيه تصوراته فى وقع دعواته على هؤلاء الذين وجهها إليهم.. الأظرف.. الورق.. الصياغة.. جديرة بالتلبية.. وربما...

ربما استعان بها متلقوها فى التندر والسخرية فى حضرة البطانة والحاشية الذين ستنطلق آراؤهم التطوعية لتهين وتسخر من قدرة الغائب عنهم.. لعله مجنون.. أو جاهل.. أو مثقف أسرته ذاته.. أو متآمر مع نظام.. أو أن الدعوة ذاتها كمين دبره تنظيم إرهابى!!.. اغتمت نفسه من هذه التصورات وأحس بروحه تهبط من جسده إلى كرسيه الجالس عليه وتواصل بغية ملامسة الأرض تحت قدميه.. هب واقفا وكأنه ينفض جسده ليستعيد روحه.. اتجه نحو النافذة المفتوحة.. هى النسمات.. نفس الحياة.. مازال باقيا على قيد الحياة.. لحظة مشابهة تماما للخروج من وطأة غارة جويةعنيفة.. حل موعد الانصراف.. خرج إلى الطريق.. زحام.. أضواء.. لافتات.. إشارات مرور.. والناس كأنهم فى توهة..

ثلث الشهر مضى.. بقى على لقائه بهم عشرون يوما.. كان قد استنفد كل التصورات فى وقع دعواته على متلقيها.. انتهى إلى استحالة حساب تأثيرها فى نفوسهم بمعياره الشخصى.. إذ أنهم من المؤكد يفكرون ويعايرون الأمور بشكل آخر مختلف عنه.. إنهم ملوك ورؤساء دول.. زعماء.. وهو لم يكن يوما ملكا.. أو رئيسا.. ولم يكن زعيما.. وعليه فالأحرى أن يوفر انشغاله لموضوع الدعوة ذاته.. الحوار

وكيف سيكون.. بماذا يبدأ؟ القضايا لاشك كثيرة.. والبداية يجب أن تكون تهيئة النفوس.. والعقول لاستقبال ماسيطرح والتفاعل معه.. لكن.. كيف؟.. ليس بمستحيل.. ذلك يتوقف على إمكانية مخاطبة المواطن العادى فيهم وليس النظام.. أمر يستاهل مهارة فائقة.. فالنزول إلى رتبة مواطن قد يكون أمرا غير مقبول من قبلهم وإلا لما اعتقل زعيم أو قتل ليحل محله أو استمر حاكم يحكم مدى حياته!..

الحل إذن أن يطلبها منهم صريحة دون مناورة أن يعايشوا اللقاء بأرواح وعقول مواطنين عاديين أعرف من غيرهم بمصالح أمتهم وليستعيدوا بعد اللقاء مايرونه صالحا من روح وعقل الزعيم.. وليكونوا ملوكا ورؤساء من جديد.. زعماء..

بقى ترتيب القضايا محل اللقاء حسب الأولويات.. وحدة الهدف والمصير.. الاستقطاب.. الديمقراطية.. دون الأمم المتحدة وقيمته و... و.. ولما كانت الأيام تمر ثقيلة وفى الوقت متسع فقد استقر رأيه على أن يتناول كل يوم قضية يبحثها من جديد ويجعلها معدة للطرح فى إيجاز لايغفل مستوى الإقناع.. وما أن يحل ليل وينتهى الإرسال التليفزيونى فيتجه الناس إلى مخادعهم ليعم الهدوء حتى يتوسط هو غرفة الصالون واقفا يقرأ فى أداء تمثيلى موجزا أعده لقضية من

القضايا.. ليلة.. ياسادة.. إن منطقتنا مستهدفة من قديم الأزل ولايفلح اختراقها إلا بتقليب أنظمتها بعضها على البعض.. إن ماصرنا إليه.. مصيرنا.. يبدو لنا جميعا موحدا فى مقدار الأزمات والصراعات والتردى وهو من ذلك لم يدفعنا نحو هدف موحد كنا قد آمنا به.. إن المصير هو الابن الشرعى للهدف يرتبط به دما ولحما وروحا.. إذا ماسقط الهدف تردى المصير.. وإذا ما ارتقى الهدف وقوى أنجب مصيرا يزهو به ويفاخر.. وليلة: إننا على مانملك من مراكز بحوث استراتيجية تخرج على مواطنينا بإصدارت لاتخلو من حذق وإدراك بما يدور فى العالم من مناورات سياسية وعسكرية وصراعات بغية نشوء تكتلات عن طريق الاستقطاب إلا أننا نقع داخل نفس الفلك ولاتعجز قوة ما عن استقطاب بعضنا واستقطاب قوى أخرى للبعض الآخر حتى صرنا فى الواقع نكاد لانملك قراراتنا ومقدارتنا.. وتباينت توجهاتنا.. إنهم عمقوا فينا نزعة التفرد.. كل يتصور أنه وحده إذا انسلخ من الجماعة يستطيع أن ينطلق بعيدا، فى حين أضمروا لانطلاقتنا المزعومة حدودا وامتلكوا وسائلها.. وليلة: ياسادة.. هذا هو الحال.. يقع الاعتداء علينا فنلجأ إلى منظمة الأمم المتحدة سعيا لاستخلاص قرار دولى بإدانة القوة المعتدية.. وسواء أدان أو وقف فى

سبيل الإدانة «فيتو» فالمحصلة واحدة!.. إن الأمر ياسادة شبيه تماما بقضايا وضع اليد فى القانون المدنى العادى.. يتجاسر القادر ويضع يده على قطعة الأرض وتظل القضية محل نظر المحاكم فى ظل بقاء الحال على ماهو عليه حتى يأتى اليوم الذى يحكم فيه القادر المادة القانونية والناطق بالحكم.. إنها سياسة «خذ وتلقى الإدانة بصدر رحب فالحكم لايملك مدفعا».. وليلة: ياسادة أية ميزة التى يراها الحاكم فىّ منصبه؟!.. إن مانراه فى استمساك الحاكم بمنصبه يجعل الأمور تختلط علينا.. فإذا ماكان هذا المنصب مسئولية مابعدها مسئولية فما بال الحاكم يتشبث به وكأنه النعيم مابعده نعيم.. المطالب بالديمقراطية كأنه استحضر الجان.. لماذا؟!

أى خطر تخشونه على شعوبكم منها؟ ـ لم أقل تخشونه على أنفسكم.. بعضكم أخذ بها.. ومازال.. اسألوه.. أى ضرر أصاب شعبه؟ اسألوه.. كيف يرى الدنيا حين ترسخ وتصبح عادة؟! استلهموا من التجربة شيئا.. وليلة: درست دساتير بلادكم.. كلها.. لعلكم تتصورون شأن بلد يعطل فيه العمل بالدستور وسط بلدان العالم.. تصورتم؟ إذن دعونى أقولها صريحة : إن دستورا يؤلف فى عهد حاكم يفصل لعصره ولبقائه هو تعطيل جاد للعمل بالمقبول.. أتصور

أن المناخ المناسب لسن دستور هو أن تضطلع بذلك حكومة انتقالية لاتعرف من هو الحاكم القادم!!.. وليلة: كان عائدا من عمله.. فالشارع بالقرب من منزل تذكر بعض لوازم يشتريها.. الحاتى.. البقال.. المخبز.. جميعهم حدثوه فى أمر أشخاص استفتوهم الرأى فيه بمناسبة تقدمه للزواج من قريبة لهم.. مبروك يا أستاذ أمين!... يبدو أنك ستصاهر عائلة عالية المقام!.. ارتعد فى داخله.. إنه نفس حديث زملائه فى العمل.. فى المنزل ظل يفكر فى أمر هؤلاء الذين يبحثون وراءه.. ترى ماذا يريدون؟! ماتقدمت للزواج من أحد.. ظل يقلب الأمور على كافة وجوهها حتى غلبه النعاس دون أن يتوصل لفكرة محددة..

عشرة أيام ويتم اللقاء.. مازال منشغلا بأمر هؤلاء الذين يستفتون الناس فيه كلما جلس إلى نفسه ليعد موجزا لقضية صرفته وساوسه عن ذلك وعطلت عقله إلا عن مجاراتها.. فى كل مكان يذهب إليه يفتش وراء عيون معارفه عن سر يخفونه لعل البعض اتخذها وسيلة للسخرية من رجل يتصورونه مجنونا.. إذا سار تلفت وراءه.. عن يمينه.. عن يساره.. لاشىء سوى أن البعض تتكرر ملامحهم.. ذاكرته سجلتها.. نفس الملامح.. أحدهم يتعقبه فى ذهابه.. وآخر عند عودته..

والثالث على المقهى أمام منزله.. كلما أطل من النافذة وجدهم وعيونهم معلقة بالمنزل ومدخله.. يهرول نحو مدخل شقته ويحكم غلقه.. فى الصالون يجلس.. فى سبحة من سبحات عقله.. مؤكد أنهم عيون الملوك والرؤساء الذين أرسل يدعوهم.. اتفقوا؟! نوع من التنسيق تم بينهم؟ إن هذه الملامح لاتحمل خيرا بالمرة. لابد أنهم اتفقوا على أن يصلوا لسر دعواتى دون أن يتكلفوا شيئا. ينتظرون الآن من عيونهم تقريرا عما أعدته لهم.. إن أحدا غيرهم لو حدثته فى موضوع الدعوة لتصور أننى مجنون.. حضورهم بأنفسهم ضرورة.. وحدهم سيتفهمون لغتى ومقصدى.. الموضوع «كالسيم» بين قطبين!! آه.. مابقى لعيونهم غير الفرصة المناسبة ليضعونى فى خانة ضيقة لافكاك لى منها إلى بالإفصاح عن سر دعواتى لملوكهم ورؤسائهم.. وعندئذ يذهبون إليهم بتقرير من كلمة واحدة «مجنون».. وبات حبيس صالونه.. فى الصباح توجه إلى قسم الشرطة.. طلب مقابلة مأمور القسم لأمر مهم.. فى حضرة المأمور تحدث بعد أن قدم نفسه : الأمر خطير جدا.. لقد حاولت ويعلم الله إخلاصى أن أصفى الخلافات القائمة بين الأنظمة السياسية فى أمتنا العربية.. أجمعهم على كلمة واحدة.. أوحد الصف.. أنبههم من غفلتهم.. فدعوتهم

إلى منزلى.. الملوك والرؤساء العرب.. تصور سيادتك إنهم اتفقوا من غيرى.. وعلى ماذا؟.. على أن يستخلصوا سر الدعوة فحسب بواسطة عيونهم الذين يتعقبوننى أينما ذهبت.. غيرهم لايصلح.. لابد من حضورهم بأنفسهم.. إن مابرأسى لايقال بأى حال لغيرهم.. رجالهم يتحينون اللحظة المناسبة ليضغطوا علىّ ويستنطقوننى.. حضرت لأحتمى بكم حتى يحل الموعد.. أقبل أن أعيش فى سجنكم حتى يحل الموعد المحدد للقائهم.. فقط أمنونى حتى يتم اللقاء.. دهش مأمور القسم من شخص محدثه.. استأذنه بعض الوقت.. خارج الحجرة أصدر أوامره لبعض مساعديه وعاد.. يساير «أمين» من جديد ويعده بتحقيق رغبته فى تأمينه.. دق الباب.. أحد الضباط فى مواجهة المأمور.. كله تمام يافندم.. يرد المأمور: دعهم يدخلون.. اصطحبوا «أمين» فى سيارتهم.. وفى مستشفى الأمراض العقلية يسألونه عما حدث.. هو نفس حديثه للمأمور.. طمأنوه.. هذا أفضل مكان لتأمينك حتى يحل الموعد..

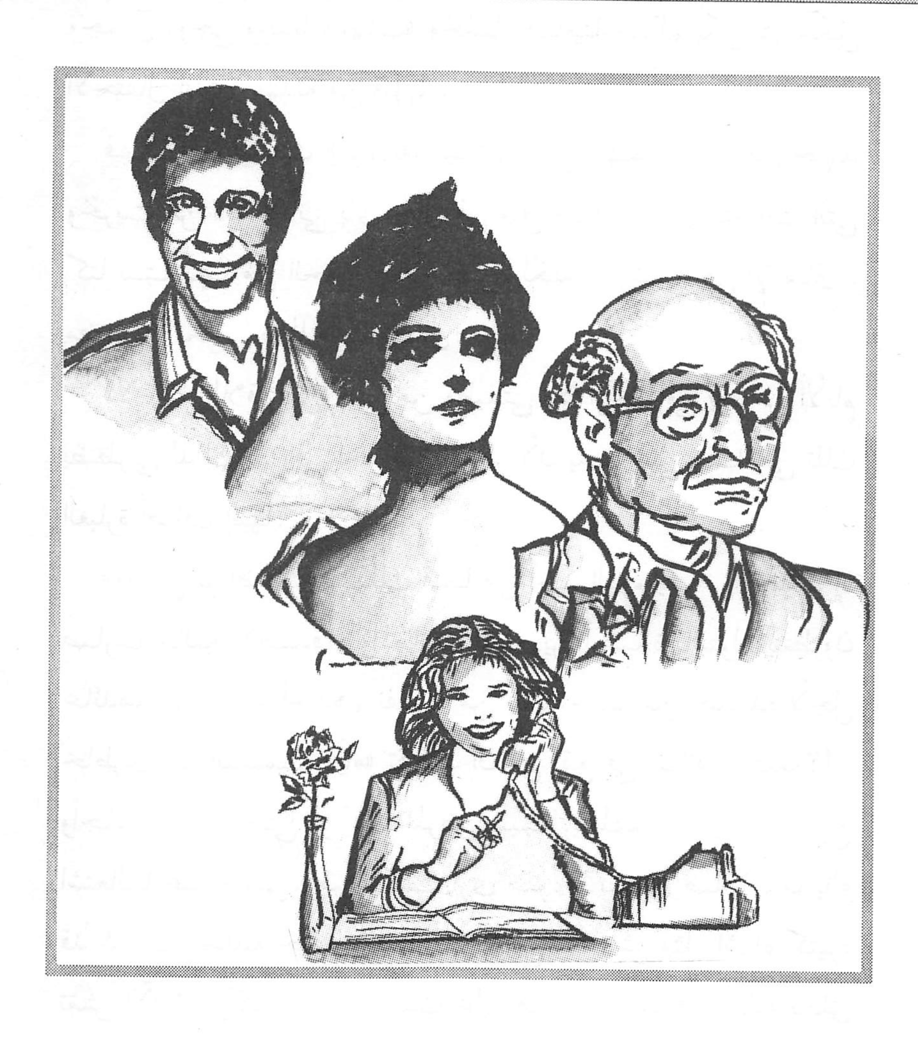
ثلاثة أيام مضت وهو تحت ملاحظة الأطباء الذين قرروا أن حالته ليست من الحالات التى يتوقع منها خطورة على من حوله من المتعاملين معه.. لذا فمن الممكن إطلاق سراحه بعد فترة أسبوع..

يوم.. وآخر.. ومابقى غير يوم على حضور مدعويه.. طلب «أمين» ورقة وقلما.. جلس يحرر خطابا لمدير المستشفى:

«سيدى.. أنا أمين عبدالمعطى ـ المودع لديكم لأسباب أمنية.. أتقدم بخالص شكرى لسيادتكم على حسن ضيافتكم لى.. وأرجو السماح لى بمغادرة المستشفى باكر حتى أتمكن من استقبال ملوك ورؤساء الدول العربية المدعوين لمنزلى لمناقشة قضايا الأمة.. وفقنا الله لما فيه خير أمتنا.. وشكرا..».

«أمين عبدالمعطى»

وما أن تلقى مدير المستشفى خطاب أمين حتى أمر بإعادة فحصه طبيا وإلغاء قرار مغادرته المستشفى مع توفير الرعاية اللازمة له حتى يتم شفاؤه.. ومر الوقت دون أن يتلقى «أمين» رد المدير حتى صار واحدا من أهل المكان يقطع فراغ يومه بتوزيع الأدوار على زملائه فى العنبر ثم يتوسطهم ليناقش معهم قضايا الأمة.



ليلة أمس احتلفنا بمناسبة عيد ميلادى السابع والأربعين.. أنا وجمال زوجي وولدنا «إيهاب» ونجلتنا «صافيناز».. لم يكن هو شكل الاحتفال الذى عهدته من قبل!..

فهذه المرة صنعت «التورتة» بيدى، وهى مهما بذلت من جهد وتحريت من دقة لاتأتى بأى حال فى مثل جودة ومذاق التورتات التى كنا نبتاعها من الحلوانى الأشهر.. لكنه الترشيد فى الإنفاق.. مضطرين نحن.. طالما قالها جمال:

«لا أميل للاقتراض حتى من وظيفتى ولا أرغب فى يوم من الأيام يضطرنى لذلك».. وفى آخر مرة اضطر لأن يعيد على مسامعى تلك العبارة أضاف إليها:

«وحتى لو اضطررت لذلك فما من أحد اليوم يقرض أحدا.. إذ صارت مالية الأصدقاء والمعارف الموسرين أرصدة بالبنوك ينتظرون عائدها ولن يحرم أحدهم نفسه من عائد جنيه من رصيده لأجل خاطرى» !!. ابتسمت «إياه» تقصد أن من يقع فى ضائقة تبتلعه؟!.. وأجاب، نعم.. حتى لو كان المرض سببا!.. المهم.. حتى الشموع اشتعالها غير خالص.. قبلا كنت أرى ضوءها تضوى صافيا.. ما باله قد شحب وتخللته خيوط الدخان!.. شمع مغشوش مثل أشياء كثيرة تغش الآن!.. وكنا نذير الكاسيت على صوت موسيقا حالمة نحلق

معها فى رومانسية محببة تدغدغ عواطفنا فى جو رفاهى ناعم.. لكن.. منذ نمت شخصيتا إيهاب وصافيناز صارت لهما اختياراتهما وخاطران عزيزان علينا فرضا على مناسبتنا ضجة موسيقا عشوائية جاهلة وأصوات جاهلة تصرخ فى غباء.. إيه؟! وفستانى لم يكن جديدا للمناسبة.. هه.. على أية حال.. احتفلنا.. والله وحده يعلم كيف سيكون الحال بعد اليوم الذى يقول عنه زوجى جمال «احنا رايحين ليوم سيتكلف فيه غسيل الوجه بالماء والصابون فوق طاقة محدودى الدخل» !!.. هاها.. إنه دائما هكذا.. ساخر إنما سخرية تنطوى على قدر من المكاشفة والتوقع.. الذى يتحقق بعضه بمرور الأيام.. مثلا فهو سخر من إعلان الوحدة بين مصر وسوريا ـ ليس لأنه غير راغب فى وحدة الأمة العربية ولكن من منظور أن للوحدة مداخل اقتصادية واجتماعية لم تؤخذ وقتها فى الاعتبار ـ وحملت سخريته التوقع بأن تنفك تلك الوحدة ويتخلف عنها صراعات قطرية وخصومة تمتد طويلا!..

.. وسخر من تمنى إحدى خالاتى أن يكون مرض شقيقها الكبير ـ خالى ـ هو المرض الأخير الذى يتوفى منه لتئول بعض ماليته إليها بالأرث وهو الذى استولى بالتحايل على بعض ما آل إليه عن أبيه ومع ذلك لم ينجب ولدا يرثه!.. سخر جمال من تمنيات خالتى وحملت

سخريته التوقع الضاحك أن يكون خالى آخر من يتوفى من أشقائه وأنه هو الذى سيشيعهم جميعا إلى مثواهم الأخير.. وحدث أن ماتوا جميعا وعاش خالى بعدهم حتى تجاوز المائة بعامين.. ماعلينا..

انفض الحفل وبعد وقت كنا وحدنا أنا وجمال بحجرتنا لما انصرف إيهاب وصافيناز للنوم.. كانت مسامعى متحفزة لتلقى عبارات حالمة من عاطفته أتصور أن التحفظ لوجود الأولاد بيننا منعها عنى أثناء الحفل.. أعنى ذلك الاحتفال الخاص بيننا الذى طالما انفردنا به عقب احتفالنا بمناسباتنا!.. لا لمسة.. ولا كلمة.. أو حتى همسة؟!.. حتى وجهه السعيد فى الحفل بعينى حاضنتى تبدل! كأنه خلع قناعا عن وجهه.. عاد جمال المهموم المستغرق فى توهة.. يلقى برأسه فوق الوسادة ويسدد نظرات إلى سقف الغرفة أعرف فيها سبيله إلى النوم!.. ومازلت تواقة لأن أحتفى بنفسى معه وحده.. كان من الصعب أن أصل لذلك مباشرة.. قلبت فى رأسى وخاطرى بسرعة لأسبق النوم إليه.. حضرتنى الفكرة.. استلقيت بجواره.. استحضرت من أعماقى ضحكة.. التفت بنصف وجهه نحوى.. وماانتظرت أن يستفسر عن باعثى للضحك.. فى ذيل الضحكة قلت:

ـ أتعرف مايضحكنى؟!..

تذكرت حادثة مرت بى وأنا صغيرة.. أبدا ماقصصتها عليك من

قبل.. لكنها نادرة بحق.. كنت فى الخامسة من عمرى.. كانت أمى لاتعرف غير طريق واحد للسوق فى المغربلين يمر ببيت خالتى التى تكبرها.. تنحدر فى خط مستقيم من بيتنا تحت سور القلعة وفى منتصف الطريق تقريبا تعرج على بيت شقيقتها وتظل تلهث وهى ترتقى درج البيت حتى تبلغ شقتها فى الطابق الأخير المرتفع كما المأذنة.. تسألها عن احتياجاتها من السوق ثم تعود أدراجها تواصل فى خطها المستقيم لتدرك السوق فتجمع احتياجاتها وشقيقتها ثم تأخذ طريق العودة.. هو الطريق ذاته.. وهو الخروج الوحيد الذى تستطيعه وحدها.. فهى «التركية» الطيبة التى تعيش فى كنف صعيدى حر إذا انعطفت لطريق جانبى لربما تاهت واستحالت عليه العودة!!.

أى والله لم تكن ملمة بمعالم الحى الذى عاشت فيه سنين عمرها!.. المهم.. كثيرا ماكنت أتعلق بأمى وأتشبث بمصاحبتها فى رحلتها إلى السوق.. وفى مرة.. أعتقد أنها كانت المرة الأخيرة التى صحبت فيها أمى إذ عادت متعبة تشكو لشقيقتى الكبرى إلحاح دقات قلبها واضطرابها وأعراض أخرى اكتشفت تناميها فى كل مرة عن سابقتها ووقف البيت على قدم واحدة لما صرح الطبيب بإصابتها بمرض القلب الذى ماتت منه.. وفى المرة الأخيرة تلك كنت كعادتى أتشبث بطرف عباءتها السوداء بينما أستغرق بكليتى فى متابعة كل

مايخاطب تطلعاتى الطفولية من المعروض بالمحال على جانبى الطريق مطمئنة إلى أننى لن أفقد أثر أمى أو أتوه عنها مادامت يدى متشبثة بالعباءة.. وتوقفت أمى عند أحد المحال.. تركت طرف العباءة للحظة ثم عدت وتشبثت به من جديد.. وواصلنا السير.. بعد فترة وجدت صاحبة العباءة تضرب فوق يدى كأنها راغبة فى تحريرها من قبضتى.. ولما التقى وجهانا تبينت أنها ليست أمى وأننى تشبثت بطرف عباءة سوداء لسيدة أخرى.. صرخت بكل استطاعتى الطفولية من توهتى وفقدى لأمى.. عادت بى السيدة تمررنى من نفس الطريق وأنا أتطلع فى وجوه السيدات ملتاعة باكية حتى وجدناها هناك فى نفس الدكان واقفة تبكى وجمع من الناس حولها.. وعرفت منها لما انفض الناس عنها أنها آثرت البقاء فى مكانها خشية أن يبتلعها الطريق وتتوه هى الأخرى فلا تعرف طريقا للعودة!!..

.. كنت ألحظ «جمال» ينجذب ببطء مع حكايتى حتى بلغت موقف فقدى لأمى الذى أستحضر ضحكته المحببة إلى نفسى وجعله يلتف بقوامه ليكون فى رقاد مواجه لى!.. وفى النهاية ضحك كثيرا وهو يربت فى تتابع حنون فوق لحم ذراعى.. ومن ثم رحت أعرض التطابق الذى أراه.. أتعرف؟ إنه حالنا منذ انغلق علينا باب حجرتنا الآن هو الذى جعلنى أجتر تلك الواقعة.. انتهى حفلنا هذا المساء

ودلفنا إلى حجرتنا وأنا متشبثة بطرف من كيان جمال زوجى كما تشبثت بطرف من عباءة أمى!.. تبينت أنه ليس جمال.. افتقدته كما افتقدت أمى فى السوق! تشابه فى العباءات إنما الحشو ليس ذات الحشو!

لكن.. ما الذى يعيدنا إلى تلاق؟ من سيمررنى بطريق يفضى إليك؟!.. و..هنا تبدل وجهه.. رصدت نفسى تحوله إلى لون آخر.. لا .. بل ألوان مختلفة متناقضة فيها أبيض الصفاء وأصفر الغيرة وأحمر الثورة وأسود الاكتئاب واللون المركب المضطرب كالتردد بين الإقدام والتقهقر والمتقع فى مرحلة بين الرضا والسخط.. والفاسخ بلا معنى كالأسف عن ذنب باق لايزول أو كالح يرمز لإرادة انسحبت أو ماتت!! ألم أقل إنه ليس جمال زوجى.. الذى أعرفه معرفتى بذاتى؟!.. يحاول أن يصرفنى عن التطلع فى وجهه الملتان بكل ألوان الدنيا.. بلسان ثقيل بحشد من كلمات تعجزه.. ويبتلع الكلمات فيخف لسانه فتطير حروف الكلام قبل أن تتجمع فتتقافز فوق ملامح وجهه!.. يدرك عجزه عن تبرير.. يحار فى صيغة.. فى وسيلة تستحضر جمال الذى يعرفنى وأعرفه.. ياه.. يخيل إلىّ أنه هو نفسه لايعرف أى جمال منه ذلك الذى أنا أعرفه. شر البلية مايضحك!.. تذكرت لحظتها عادل إمام.. شاهد ماشفش حاجة.. لما سأله ممثل النيابة عن

اسمه.. من فوره صفع جبهته بكفه كأنه يحاول أن يعيد لرأسه القدرة على التذكر.. تذكر اسمه!! على مثل حاله بدا جمال في ناظرى.. ضحكت على ذلك.. رغما عنى.. أليس شر البلية مايضحك؟!.. لكنه فجأة بدا كمن عثر على شيء بالغ الدقة .. الإبرة في كومة قش.. اغتبط لذلك.. توحد لون وجهه وتحرر لسانه من عثرته.. كل سنة وأنت طيب ياحبيبتي وتحركت أصابعه فوق لحم ذراعى وكتفى وتتلمس المواضع في سائر وجهى.. هو لتوه تذكر أن مسامعى متحفزة لتلقى عبارات حالمة من عاطفته وأننا اعتدنا احتفالا خاصا بيننا طالما انفردنا عقب احتفائنا بمناسبات!.. نعم.. كأنه استدل على الحجر الذى وضعه كدلالة إلى رصيده من الحب في نفسى.. أتعجب من ضعف بصيرته الطارئ.. ماكياجى وفورمة شعرى وكل هذا المكشوف من جسدى والمستور أيضا مجرد حجر صغير يدله إلى المخبوء في داخلى من حب واعتناء؟!.. وليته استدل عليه ببصره وبصيرته هو.. إنما احتاج أن أبصره أنا بألف كلمة ليعرف كيف ينطق بجملة.. كل سنة وأنت طيبة ياحبيبتى.. ويعرف سبيل أصابعه إلى لحم ذراعى وكتفى والمواضع في سائر وجهى.. الآن فحسب استدللت ياجمال؟! وها قد شرعت في إقامة احتفالنا المنفرد.. شيء بداخلى يدعونى للانسحاب من الحفل! لا.. لن أشاركك.. لكنه مازال طموحى إلى

عاطفته يغالب كبريائى.. اشتد الصراع.. حسمته ماعاد هناك فرصة للانسحاب إذ أدركت أصابعه رصيده المخبوء فى كيانى.. و.. تلقيت تهانيه الخاصة.. عاد يشبك أصابعه فوق صدره ويسدد نظرات إلى سقف الغرفة.. استغرقت وقتا أوجز فى سؤال أدفع به إليه: ماذا جرى لك ياحبيبى؟! لكنه النوم الذى كان قد سبقنى إليه.. وبقيت مسهدة أستدعى النوم بالتحايل على خاطرى: لابد وسأعرف ماذا ألمّ بزوجى.. وفى أقرب وقت سأعرف..

اليوم «جمعة».. عطلتنا الأسبوعية.. تجهز للخروج وحده.. منذ فترة وهو يحتد علىّ إذا ماسألته عن وجهته.. الأمر الذى برره بأنه كثيرا مايرغب الرجل فى الخروج من بيته لغير وجهة محددة ربما من قبيل الرغبة فى الانفراد بذاته أو إيهام نفسه بقدرته على التحرر من قيد أعبائه لبعض الوقت يستغرقه تجواله بغير غاية محددة أو تكليف بشىء يذكر!.. وللحقيقة اقتنعت ووافقته على ذلك الميل من نفسه للانطلاق منفردا!!.. لكننى لاحظت إسرافه فى مطاوعة نفسه على مثل هذه الانطلاقات غير أنى ماعدت أملك مراجعته فى أمر سبق وأبديت اقتناعا به!..

المفروض أننا ننتظر اليوم «جليلة» شقيقته التوأم الذى يسعد بزيارتها أيما سعادة.. إذ يصبح بيتنا فى عيد من هذه الزيارات.. يستقبلها فى

أحضانه ولايتوقف عن حوار معها وزوجها بل وربما دخل المطبخ يعد للجميع شايا أو قهوة.. يقول إن شقيقته كانت دائما يرضيها أن تكون من صنع يديه في بيتهم الكبير.. ويظل يلهو ويضحك مع أولادها ويبذل جهدا ليلحم عواطفهم بعواطف أولادنا.. كما أننى أحببت جليلة إلى حد التآخى.. فهى ابنة جيلى ومن نفس عمرى.. كريمة في استقبالى ببيتها تبادلنى الحب الخالص بمثله.. كما كانت صاحبة التأثير ـ لصالحى ـ على إرادة شقيقها «جمال» فى المواقف الخلافية بيننا التى لولاها لوصلت إلى حد القطيعة وقد كنا فى فورة شبابنا ولم نعتد بعد الرابطة الزوجية وتسيرنا عواطفنا وانفعالاتنا لصدامات الضيق بالتزاماتنا!.. وفوق كل ذلك أن فرط حبى لجمال جعلنى أحب كل شيء يحبه وأتفانى فى تقريبه من قلبى.. هه.. ذكرته بأن شقيقته توأمه وعدت بزيارة لبيتنا اليوم ولعلها فى طريقها إلينا الآن.. ولشد مادهشت عندما وجدته يدخل فى سترته وهو يؤكد لى أنه يذكر ذلك غير أنه مرتبط بموعد مع صديقه «سلامة حامد» وأنهما بصدد صياغة كتاب سياسى جديد قد يستغرق العمل فيه أياما من الراحات الأسبوعية وربما كل الوقت الفارغ من عمله بالجامعة.. وانصرف..

توجهت من فورى إلى المطبخ.. وضحت أمام نفسى أنسى كثيرا..

كأنها هموم الدنيا تزاحمت فى رأسى إلى حد أننى راجعت حساب عدد أفراد أسرة جليلة الذين سيتنازلون الغداء معنا اليوم عدة مرات رغم أنهم خمسة بالجملة.. ثلاثة أولاد وجليلة وزوجها.. ولم أقنع بصحة حسبتى إلا لما ذكرتهم بالاسم على أصابع يدى فردا فردا!

تتنازعنى الأفكار والهواجس، لابد وأن جمال ليس فى طبيعته.. ترى ماشاغله الذى بدله؟! لكن.. منذ متى تبدل؟ شهران.. لا.. ثلاثة.. منذ امتنع عن ذكر وجهته عند خروجه أو سبب تأخره فى العودة ظهرا.. كان.. كان قبل ذلك يقول: سوف أتأخر اليوم عن ميعاد عودتى ظهرا إذ سأمر على سلامة حامد فور خروجى من الجامعة.. أو يقول وقد تهيأ للخروج مساء: إنه لقاء مع بعض الأصدقاء القدامى.. وكان قبل الشهور الثلاثة الأخيرة كلما وقع خلاف بينه وبين صديقه سلامة حامد تنتظم مواعيده ولايخرج مساء أو يتأخر عن العودة ظهرا حتى أننى كثيرا ماتمنيت أن تنقطع صلته بسلامة حامد هذا.. ليس لتنتظم مواعيده فى صالحنا فحسب وإنما من قبيل الإشفاق عليه من هذه العلاقة..

فسلامة حامد زميل دفعتنا فى الجامعة.. أنا وجمال زوجى وقد تخرجنا فى كلية الآداب قسم مكتبات.. اشتغل جمال فى مكتبة الجامعة بينما جاء تعيينى بدار الكتب العمومية التى هى المكتبة العامة

الأم.. في حين افتتح سلامة حامد دارا لنشر الكتب وتوزيعها..

منذ أربع سنوات التقى جمال بسلامة وأعاد الود القديم بينهما إذ كانا متلازمين فترة اعتناقهما فكر اليسار إبان الدراسة في الجامعة.. كان ـ وقتها ـ جمال زعيما في وسطنا.. ذكاء ولباقة وفكراً منظما ووسامة.. بوسعه أن يحرر مجلة حائطية مكتملة وحده.. وكأنه ولد ليكون صحفيا.. وكان سلامة من ضمن الزملاء الذين لايخفون انباهرهم بجمال.. أكثر من زميلة كن ينافسنني في ود جمال لكني كنت مطمئنة إلى أنني الحبيبة.. المهم.. تنامت الصداقة المجددة بين جمال وسلامة بسرعة.. ولم تغب عني أسباب هذا التنامي.. فجمال وقد تقلصت صداقاته بمرور السنين وضغوط الظروف الاجتماعية والاقتصادية وجد في استعادة صديق قديم تربطه به ذكريات عزيزة قدرا عظيما من السعادة.. كما أن اتفاقا قد تم بينهما على أن يستعين بقدرات جمال كلما لزم الأمر في معالجة بعض شئون مشروعه بمقابل مادي وجده جمال فرصة لسد نواقص مادية في حياتنا.. ذلك غير ماتكشف فيما بعد من اعتماد سلامة على فكر وثقافة جمال السياسية وحاسته الصحفية في إعداد وصياغة مقالات سياسية عديدة بالصحيفة القومية كانت لها ردود فعل طيبة.. أما عن خلافاتهما فقد كانت دائما بسبب الماديات.. فسلامة حامد دائما

يغالط في الحساب وكثيرا ما اعتمد على الحياء الطبيعي في جمال عند الدخول في حوار مادى.. دائما يسترذل المطالبة بحق مادى ويعتبرها تكلفه من كبريائه.. وإثر كل خلاف يعود سلامة معتذرا بعد قطيعة قصيرة ليفتح صفحة جديدة.. وفي كل مرة يستنزف قدرات وجمال ويسرقه!! ودائما يبقى سبب واحد يجعل جمال يقبل بصفحة جديدة في العلاقة.. إذ يجد في المساحة التي يسمحون بها لكتابات سلامة حامد في الجريدة متنفسا لمعتقداته وهمومه السياسية حبيسة عقله ووجدانه حتى لو لم تكن تعود عليه بنفع مباشر!!.. يعنى هوايته أصبحت أن يتخذ سلامة حامد قناة يمرر خلالها مفاهيمه وتحليلاته السياسية!!.. هواية تكلفه ـ على حد قوله ـ علاقة بشخص يرفضه في نفسه!..

لكن.. من أدرانى الآن أن انصرافه عنا بسبب من علاقته بسلامة حامد.. لابد أنه مهموم بشيء.. سبحاته المنفردة في حضورى.. عدم احتفائه بانفرادتنا!.. كان يضج بسهر إيهاب وصافيناز.. يعتبره مزاحمة لنا في آخر وقت ممن تسمح به ظروفنا الحياتية!.. ماكان ليمرر فرصة ليشاكسنى ويداعبنى طالما انفردنا.. كنت أسخر من ذلك ـ راغبة فيه ـ زاعمة أنه مازال ينهج نهج مراهق أو هو عجوز يتصابى!! ماله الآن.. ينتقد.. دائما ينتقد الطعام الذى أقدمه ويغضب كطفل.. وعطرى

الذى طالما قال فيه إنه يمتزج مع رائحة عرقى فيؤلف عطرا فريدا محببا إلى نفسه.. ينتقده.. يشتمه منفرا مستفزا.. وبديله.. وأكثر من بديل أيضا ينفره ويستفزه! ياه.. مابقى من سابق عهدنا غير حوار العقل حول الأوضاع السياسية والاقتصادية و.. عدا ذلك ينام.. ينام وكأنه يدخر نفسه لمهمة!!.. أيكون مهموما بسبب من وظيفته؟..

ذلك الزميل الذى اعتاد دق الأسافين بينه وبين مديره؟ أو هى مظاهر شيخوخة مبكرة؟! لا.. إن أكثر من ذلك كان من الممكن إن يكون مادة لحوار بيننا!.. أحسه موروطا فى شىء.. لكن أى شىء هو؟! فى مفهومى أن الرجل لايخفى تورطه عن شريكته فى غير حالتين:

أن تكون دواعى ورطته مشينة فى حقه.. أو فى إطار عواطف متعاظمة رغب فى أن يجنبها الاهتمام والقلق بما يطحن فكره ويعكر خاطره.. أما عن زوجى جمال فلا أحسبه يقترف مايشينه.. فهو وطنى مهموم بقضايا وطنه بالحد الذى ينأى به عن شبهة الاختلاس أو الرشوة أو حتى الاشتراك فى مؤامرة ما.. وقنوع معتد بنفسه فلا يتصور أن يستدين لأحد حتى يقبض همّ الذين على عنق كبريائه!.. ومهذب يحرص تماما على ألا يفسد الود بينه وبين مخالطيه الخلاف فى الرأى أو جزئية من عمل.. ومحاور ومناور رأيه سديد لايضع فكره فى

مخانق.. أكون واهمة؟!.. أو أنا التى اعترانى قدر من نقص مع فوات السنين.. لا .. ألف لا !.. هو الذى تبدل.. ودائما إذا ماسألته: مالك؟.. يقول لاشيء.. ومن كثرة سؤالي.. «مالك» ؟ صار يقفز فوق كرسيه محتدا فى عصبية وهو يقول : «كل شوية مالك؟ مالى على الله ياستى.. مالك أنت كل شوية تسألينى مالك؟.. إيه.. حاجة تزهق» .. أقصد أنه أصبح من المستحيل أن أعرف منه أسباب تغيره!..

ترى أين هو الآن؟

حضرت جليلة بعد آذان ظهر الجمعة.. وزوجها وأولادها الثلاثة.. حرصت على ألا أبدو على غير عهدهم بى.. كلفنى ذلك كثيرا.. بل أننى كثيرا ماكنت أتوه فى سبحات منفردة رغما عنى.. فقد ظل السؤال يلح فى رأسي: ترى أين هو الآن؟.. وتستعيدنى جليلة من سبحاتى أكثر من مرة.. ردودى على أية استفسارات احتمالية.. ربما.. من الجائز.. قد يكون.. لعل!!.. كأنى لست واثقة من شيء.. جمعتنا المائدة للغداء.. وجوم يسودنا.. وجوده هو الذى يشاكس ويداعب ويبالغ فى الحفاوة.. أين أنت ياجمال؟.. يعز على نفسى أن تفتقد جليلة لحفاوتك وابتهاجك لحضورها.. جميعهم يسألوننى عنك.. ياه.. فقير بيتنا من غيرك للمرح ودفء المشاعر.. ماعهدتك تؤثر علينا شيئا.. حسبى أنى لا أراك قد فرغت من إرادتك واستودعتها مجالا

آخر أو.. فكرة.. أخرى أو.. سقطت عنك فى متاهة!!..

فى الليل عاد.. وحدى مستيقظة.. وجهه مرهق.. ملامحه مستفزة.. فى يده لفافة.. بسبوسة!.. أكل خارج البيت.. لايرغب فى شاى أو قهوة.. خلع ملابسه.. حمل المنشفة فوق كتفه متوجها إلى الحمام.. عاد مستحما.. دخل فى بيجامته واستلقى على فراشه.. متشاغلة أنا عنه بينما أتأمله من حيث أراه بوضوح.. عيناه محمرتان.. مرهق جدا.. «سأنام».. قالها وهو يلح فى طلب إطفاء نور الحجرة.. أطفأت نور الحجرة وتمددت بجواره فى فراشنا.. تعمدت ألا ألفظ ببنت شفه.. بدا ساكنا وكأنه استسلم لنوم داهم!.. وبقيت معتقدة أنه مازال على يقظته يتصنع النوم أو يستدعيه!..

ولفترة ظل على سكونه.. لكنه عاد يتقلب فى مكانه فى شكل المستغرق فى النوم.. يشيح بيده ويدفع بقدمه!.. شىء من ذلك لم يكن من عادات طبيعته.. تنامى اعتقادى فى يقظته إلى يقينى.. تناومت.. رمقته من بين رموش عينى يفتح عينيه ويغمضهما! ظللت أتصنع النوم.. يقترب.. يتعمد أن تصيب دفعات قدمه ساقى البعيدة!.. وأظل أتصنع النوم.. مقصودا كان كفه ثقيلا فوق كتفى!.. ولم أحرك ساكنا.. فجأة نهض من مكانه وتوجه ناحية المطبخ.. ويعود.. يوقظنى.. يطلب شيئا من طعام. أذكره: ألم تقل إنك قد أكلت فى

الخارج؟!.. نعم قلت ولكن عاد وتملكنى الجوع.. قالها فى لهجة معاندة.. أحسسته كطفل يتراجع عن موقف.. يمهد لتراجعه فى غشم.. أشفقت عليه من استمرار يكلفه كبرياءه.. نهضت.. قبالته وقفت.. فتحت ذراعى أحتويه.. وضع رأسه فوق كتفى وضمنى بقوة.. استأذنته فى أن أجرب عطرا جديدا.. قال لا.. ليس مهما فى شيء.. استمر يعانقنى ويقبلنى.. و.. وبعد وقت شبك أصابعه فوق صدره وسدد نظره فى سقف الغرفة.. كنت بطبيعة الحال أعرف فى ذلك سبيله إلى النوم.. سألته ألم تمض وقتا طيبا مع صديقك؟.. أجاب: حضرت ابنته.. أقصد حضر ضيوف فشغلونا كل الوقت عن مهمتنا.. و.. فترة وعدت أسأله من جديد: أتود لو أعد لك شيئا من طعام؟! لكنه لم يجب إذ كان النوم أقرب إليه من سؤالى!..

وبت مسهدة أتحين نهارا أتبين فيه سر اختلاف زوجى.

كان احتمال تأخر جمال عن العودة ظهرا يفوق عندى احتمال عودته فى موعده المعتاد قبل الشهور الثلاثة الماضية.. عدت من عملى فى موعدى.. فى الفترة الأخيرة لمست فى نفسى العزوف عن تنسيق البيت.. محض تصريفات سطحية تعيد المستخدم من أدوات البيت إلى مواضعه وأعود بعدها لأجلس ساهمة أو أتمدد فى فراشى بينما ينشغل إيهاب وصافيناز فى مراجعة دروس اليوم.. لكنه عاد فى موعده!..

ماكنت أعددت شيئا للغذاء.. ثار لذلك.. وراح ينتقد كل شيء فى البيت.. يوجعنى نقده.. كأنه يتعمد صداما.. لا .. ليس هو جمال!.. هكذا أحدث نفسى وأنا فى المطبخ أبذل جهدا لمعالجة الموقف.. لكنه ذنبى على أى حال.. رغم ذلك سعيدة بعودته.. ربما انتظر فى ذلك من جديد.. أيكون خلافا نهائيا قد وقع بينه وبين صديقه سلامة حامد؟.. ليته يكون!.. ليفرغ لنا و«طظ» فى جنيهاته المسمومة والأوضاع السياسية والاقتصادية وهموم الدنيا الرابضة فوق رأسيهما!!.. لكن مع ورود ذكر سلامة حامد فى خاطرى على هذا النحو طرأ شيء كانت قد اختزنته ذاكرتى من حوار الليلة إياها.. وقتما سألته: هل أمضيت وقتا طيبا مع صديقك؟.. أجاب : حضرت ابنته!.. ثم بدا يستنقذ لسانه من زلته ليقول: حضر ضيوف فشغلونا طول الوقت عن مهمتنا.. نعم قال: «حضرت ابنته» .. ولم يكن لسلامة حامد أى نسل من زوجته! طفت هذه العبارة فى رأسى بعد ماحيرت الباطن عندى واعتملت فيه!.. أعددت المائدة.. اجتهدت فى أن أجعلها منمقة.. التففنا حولها نأكل فى صمت إذ تسرب لولدى نفس التحسب الذى انتابنى لأى رد فعل غاضب منه إزاء أى تصرف أو استفسار!..

فرغت وابنتى من غسيل الصحون والأوانى وإعادة ترتيب المطبخ..

عدت من ذلك فوجدته مستغرقا فى إطلالة من الشرفة إلى الشارع.. تجاوب مع دعوتى لتناول الشاى فى حجرتنا.. جلست قبالته.. التقت عيوننا.. باسمة كنت وهو يشعل سيجارة.. بادلنى الابتسام وهو يضع عود الثقاب فى المنفضة.. مازالت عينه تتعلقان بوجهى.. فى طيبة أعهدها فيه اعتذر عن حدته قبل الغداء!.. أعرف أنه فى النهاية يلين ويتحول عطوفا.. يحببنى فيه ذلك أكثر.. ربما اعتبرته مكافأة لصبرى على حدته من ضيق استأثر به.. و... خضنا فى حوار.. عن جارتنا المسكينة لما تناهت لمسامعنا لفظات توجعها من آلام مرضها المبرحة.. اعتدنا سماعها كلما انتابتها النوبة.. عاجزة عن تكاليف جراحة لازمة بينما آلاف من الجنيهات هى رصيدها بشركة التوظيف محتبسة لحين فك الأزمة القائمة بين الحكومة وصاحب الشركة! ثم تفرع الحوار إلى احتمال صرف المنحة فى عيد العمال من عدمه.. و.. المباحثات مع صندوق النقد الدولى.. و.. بيع بعض وحدات القطاع العام .. و.. وجدت فى نفسى ميلا لاستكشاف أبعاد ما ألم به طوال الفترة الماضية.. يبدو أن استغراقى فى البحث عن مدخل لذلك جعل الحوار بيننا يتوقف لفترة.. كان قد تمدد فى كرسيه مسترخيا.. مستسلما لتوهة وجدته!.. حرت فى تخير مدخل لغايتى.. صرفت نفسى عن ذلك تشاغلت بحمل فناجين الشاى الفارغة إلى المطبخ

عدت لأراه من عند مدخل الحجرة وقد مال بجذعه للأمام ووجهه فوق كفيه.. لم يشعر بعودتى قبل أن أمرر أصابعى تتخلل شعر رأسه.. اعتدل فى حرص من أن أطالع صفحة وجهه.. كانت يداه تنسحب إلى جانبى وجهه تمسحان عبرات أذرفتها عيناه.. ضممت رأسه فى صدرى.. مازالت أصابعى تتخلل شعر رأسه.. مالك؟!.. سألته.. أحسست سخونة دموع تسيلها عيناه وهو يردد عبر نشيج: متضايق فحسب.. نوع من الزهق استبد بى.. لاعليك فسأعود لطبيعتى!. عندئذ عرضت أن نبذل ملابسنا لنخرج ـ على طريقته ـ من غير وجهة محددة!!..

بعد تجوال كنا نقرع جرش شقة عمه «خيرى» هو أقرب الناس إلى عقله.. نتخذه صديقا فوق درجة القرابة.. أستاذ علم النفس فى الجامعة قبل أن يتقاعد.. مثقف جدا.. محاور جيد يجد متعة فى حوار يجمعه وجمال زوجى.. منذ فتح الباب يستقبلنا أدركت أن شاغل زوجى جمال قد استولى على نصيب الرجل فى اهتمامه كما استولى على أنصبتنا جميعا.. هى فترة ثلاثة شهور تقريبا حسبها عمه «خيرى» مدة انقطاعه عنه وهو الذى ماكان يفوت أسبوعا من غير لقاء يجمعهما أو يجمعنا فى بيته حيث آثر أن يعيش بمفرده بعد زواج بناته منتظرا عودة ولده الأصغر من سفرته لينضم إليه بعد أن

يزوجه.. وبدا الحوار بيننا حول اهتماماتهما المشتركة.. أخبار شركة التوظيف.. احتمالات انتهاء الأزمة.. ويومئ العم «خيرى» ناحية جمال مؤكدا لىّ أنه لو تسنى له أن يدلى بشهادة للتاريخ لشهد بأن جمال زوجى هو أول من حذر من وجود شركات توظيف الأموال على الساحة الاقتصادية والسياسية.. وإمعانا فى تأكيد ذلك راح يورد بعض عبارات يذكرها عن جمال فى هذا الشأن.. إنها شركات احتكارية وإن مثلها لما يوجد فى بلد متحضر تتقوى له الحكومة أو تدفع برؤوس أموال وطنية تنافسها وتقاوم أهدافه الاحتكارية.. إنما فى بلدنا تنامت مالية هذه الشركة على حساب نفوذ الحكومة الاقتصادى.. ألم تبتلع مدخرات المواطنين وتجتذبها من البنوك الوطنية التى هى ركيزة أساسية تستند إليها الحكومة فى إقامة مشروعاتها الإنمائية ومشروعات البنية الأساسية؟!.. وأنها فى سبيلها للقضاء على معظم الصناعات الصغيرة والمتوسطة بما تفرضه من إغراء أمام القائمين على هذه الصناعات من الأهالى.. إن صانعا بسيطا يقارن بين جدوى جهده بورشته وربحية رصيده بشركة توظيف سرعان ما يفكر فى بيع ورشته ليحول ثمنها إلى رصيد يوظف هناك!.. و.. وقد يأتى اليوم الذى تبيعنا فيه شركات التوظيف كل شىء يلزمنا بالسعر الذى يروق أصحابها بعد أن يحتكروا صناعة وتجارة كل احتياجاتنا!..

وأيه؟ في مرحلة مبكرة جدا أكد على علاقة تمويلية بين التوظيف والتطرف.. و.. أحـد حـتى الآن لايسـتطع أن ينفي ذلك.. و.. أن زوجك هذا داهية مكشوف عنه حجاب السياسة!!.. واستطرد يستفسر من جمال:

ـ منذ فترة لا أطالع شيئا في الجريدة لصديقك سلامة حامد.. أين جهدكما البارز؟!..

من فوره أجابه جمال:

ـ اختلفنا منذ فترة طويلة.. ربما أكثر من ثلاثة شهور..

تغافلت وكان لابد وأن أتغافل عن ذلك الذى ورد برد جمال على سؤال عمه.. من ثلاثة شهور اختلفا!..

الآن تأكدت أن شاغله شيء آخر غير سلامة حامد.. والتحليلات والكتـابات السـيـاسـيـة!.. لكنه ليس أوان تكذيـبه ولا المكان المناسب لذلك.. وواصلت أستمع لوصفه في أسباب الخلاف النهائي بينهما:

ـ لما التقيت مجددا بسلامة حامد منذ أربع سنوات لم أكن أتصور أنه قد شق طريقه يكتب للجريدة من خارجها.. حقيقة صادفني بعض مقالات تحمل اسمه لكن لم أحسبه هو سلامة حامد أحد صحبة اليسار في الجامعة خاصة وأن مقالاته كانت في مناسبات لايتناولها قلم يسار كالاحتفال بذكرى سعد والنحاس وغيرهما.. ولما صار بيننا

اتفاق عمل بمشروعه لمست ميله للحوار السياسى وتهافته.. أعرفه نفعيا.. منذ فترة الدراسة.. وأدرك أن حوارنا لابد ينفع مقالاته.. فى الحقيقة وجدتها فرصة لإشباع هوايته القديمة.. وبمرور الأيام وجدتنى مطالبا باستلهام الأفكار وعناصرها لمقالات صديقى وكلما لقيت مقالاته استحسانا ألح يستدر المزيد من رأسى.. وجدت صديقى وصوليا بغير تكليف يتخذ من مساحة مقاله خندقا حكوميا.. كان علىّ أن أهذب من ميله هذا.. ولك أن تتخيل كيف يتفق وطنى ووصولى فى خندق واحد؟!.. جعلتنا طبيعة المرحلة نتفق.. فخصومه السياسيين - بحكم أنه حكومى متطوع - هم أيضا خصومى الذين يمثلون فى قناعتى الخطر الداهم الذى سيهدم المعبد فوق رؤوس الجميع.. من هنا كان اتفاقنا فى فكرة المقال وليس فى الهدف منه.. المهم أننى بقلمه روجت لقناعاتى وبلغتنى أصداؤها فيما يلقاه صاحبى من ذيوع واستحسان على مستوى المثقفين وبعض الجهات.. المهم أن صاحبى لم يكتف بسرقة رأسى إنما هو دائما ظل يسطو على حقوقى عن جهدى فى بعض الأعمال التى نتفق عليها.. ضقت بهذه العلاقة الرذلة.. فلا شىء يتغير.. لاصديقى تحسن ولا السياسة أو الاقتصاد.. سيطر على شعور بالقرف.. بصقت وجهه إزاء إصراره على مغالطتى فى الحساب وتركت له كل شىء ومضيت عازما علىّ أن أقاطع أية

محاولة لفهم شيء..

انتهى الحوار وبقيت لوعتى من طعنته فى ثقتى به.. ثلاثة شهور منصرف عن دنيانا لشيء.. لا أعرفه؟!.. وانصرفنا بعدما اختلست فرصة لأهمس فى أذن العم خيرى برغبتى فى أن يزورنى بالمكتبة زيارة رجوته أن يحتفظ بسرها.. ومضيت متغافلة عن اكتشاف كذبه، عازمة على المضى فى استكشاف الحقيقة وسر تغيبه عن البيت وانصراف مشاعره عنا.. بل ودموعه الساخنة التى سيلتها عيناه فوق صدرى قبل خروجنا من البيت.

ليلة أمس.. لما عدنا من زيارتنا لبيت العم خيرى كان زوجى جمال كالقط المربوط فى ذيله ورقة! يلف ويدور حول نفسه.. الظروف الرديئة التى جمعته وسلامة حامد فى خندق واحد.. إن شيئا لم يتغير مع الجهود المبذولة.. فلا صديقه بدوام العشرة ارتقى إنسانيا لمستوى الصداقة وزمالة الخندق السياسى.. ولا الأحوال السياسية والاقتصادية تتطور لغير الأسوأ!!.. ويعود ليكرر: ماكنت أود أن أخوض فى هذه الشئون مرة أخرى.. تذكرنى بفترة كئيبة من حياتى أود لو أنساها.. ومازال يدور حول غاية أعرفها.. الحقيقة التى كشفت كذبه.. لما ذكر لعمه خيرى أنه منذ أكثر من ثلاثة شهور اختلف مع صديقه سلامة حامد وانقطع عنه.. بينما كان سلامة حامد حجة تغيبه

عنا!.. يود لو يتأكد إن كان تصريحه لعمه بهذه الحقيقة قد رصدته أذناى أم أن العبارة مرت دون أن تلتقطها مسامعى؟!.. وحرصت ألا أقع فى فخ من الفخاخ التى نصبها.. مدركة لخطورة مواجهة تعريه وتكشفه كاذبا.. سنختلف دونما مكسب يتحقق.. سيتعاظم على الحقيقة.. لم أعتقد منه الاحتماء بكذبة طوال عشرتنا.. أبدا لم يكن كذابا مرة قبل الشهور الثلاثة الأخيرة.. صريح من أخلاقه وجرأته.. مثل هؤلاء يزلزلهم رصد كذبة عليهم.. بل ربما جرتهم معرة ذلك على نفوسهم إلى تدمير العلاقة التى تسقط فى نطاقها راية اعتدادهم!.. كما أن سعيى لبلوغ الحقيقة وراء الظواهر التى اعترت سلوكه يلزمه أن يتصرف على طبيعته المستجدة دونما تصور منه أننى اتخذت من كذبه مادة شكىّ الذى جعلنى أرصد حركته وأفتش وراءه عن الذى يخفيه عنى.. لذلك آثرت أن أسقط الكذبة فى قاع ضميرى دون أن تحدث أى دوى يستوقفه عند يقينى من أنه قد كذب.. وليعتقد هو أن العناية الإلهية قد سترت منه ماكاد أن يتعرى بزلة من لسانه فصمّت أذنى عن العبارة التى يتخوفها الآن وجعله الخوف من تأثيرها كالقط المربوط فى ذيله ورقة يلف ويدور حول نفسه ليرى بعينى رأسه الشىء الغريب العالق بذيله!!.

واليوم التقيت بالعم خيرى أحطت الرجل بالمستجدات التى اعترت

سلوك زوجى جمال.. هو عمه وصديقه الأقرب إلى عقله.. كل المستجدات.. انصراف مشاعره.. سبحاته المنفردة فى حضوره بيننا.. تخلفه عن العودة للبيت ظهرا أغلب الأيام.. خروجاته عند المساء وعودته فى ساعات متأخرة من الليل.. ضيق صدره باستفساراتى ومداعبات الأولاد.. رجعاته المكدودة واستسلامه للنوم.. غضباته كطفل.. بكاؤه ونشيجه بلا سبب يذكر وهو المعتد بنفسه قوى الإرادة.. وشاغله المجهول الذى جعله يتغيب عن لقاءاته بعمه واستقباله لجليلة شقيقته التوأم وكذبه.. ثلاثة شهور مع شاغله بعيدا عن علاقته بسلامة حامد بينما يتخذه مبرر انشغاله.. حتى يوم الجمعة السابق لزيارتنا للعم خيرى خرج فى الصباح بزعم ارتباطه بموعد عمل مع سلامة وعاد عودة مكدودة فى المساء.. وفى رد مقتضب على سؤال عن وقته كيف أمضاه مع صديقه وضح يستنقذ لسانه من زلة لما قال «حضرت ابنته أقصد حضر ضيوف فشغولنا كثيرا.. أى ابنة تلك التى حضرتهما؟.. ليس لسلامة حامد أى نسل من زوجته!.

وعدنى العم خيرى بمساعدتى فى استجلاء حقيقة الأمر.. وعليه استمررت أحيطه علما بما يطرأ من مستجدات على سلوك جمال.. عشرة أيام مرت على نحو مختلف.. فقد عاد جمال زوجى إلى سابق عهده قبل الشهور الأخيرة المنصرمة بل قبل صداقته المجددة بسلامة

حامد منذ أربع سنوات.. يخرج صباحا ليعود ظهرا.. تلتف الأسرة حول مائدة الغداء.. يراجع مع إيهاب وصافيناز دروسهما ويقص عليهما بعض تجاربه الحياتية.. نتابع معا المسلسل التليفزيونى وسهرات نادى السينما وأوسكار.. غير أنه بقى تأخذه بعض التوهات فى انفراداتنا وتتملك التناقضات سلوكه العاطفى حيالى. مرة عاد بزجاجة عطر نسائى مختلف لم استخدمه من قبل.. وفى المساء وضح يستفز عواطفه حتى بدا وكأنه قد بلغ أوجه ولهه وهو يستقبلنى ورائحة العطر الذى استحضره تنبعث من أرديتى!.. وبعد وقت بدت مظاهر الإحباط فى وجهه كمن أسرف فى تهيئة مناخ لأحداث لم تقع أو وقعت على نحو لايستاهل ماحشد لها من استعدادات!.. وبعد ذلك بيومين عاد إلىّ برداء نوم متميز الأمر الذى جعلنى أتوقع أن نمر بليلة تماثل ليلة العطر المتميز إياه!!.. وجدت فى نفسى الميل لمعاندته!.. فى غمرة انشغاله باستدعاء عواطفه واستحضار مظاهر الوله تصنعت الاستغراق فى النوم بينما أرمقه من بين رموش عينى.. فى البداية قابل ذلك باعتداد من نفسه فراح يستدعى النوم وقد شبك أصابع كفيه فوق صدره وسدد نظره فى سقف الغرفة!.. دقائق ويعود من ذلك ليلتف بقوامه ويجعل نفسه فى مواجهة.. هى عواطفه مستفزة والوله فى عينيه.. ثم يتخابث.. يغمض عينيه ليبدو مستغرقا فى النوم بينما يطلق

العنان لساقه تناوش ساقى البعيدة وكفه يصدم لحم كتفى.. مازلت أتصنع النوم بينما أتابعه من بين رموش عينى!.. استبد به الضيق.. تسلل من الفراش تمشى فى الغرفة متعمدا ألا يصدر عن حركته صوتا.. عند المرآة توقف.. مد يده إلى زجاجة العطر التى كان قد استحضرها.. رفع غطاءها وراح يتشممها.. ثم توجه إلى صوان ملابسى حيث رآنى أضع رداء النوم الذى أحضره اليوم.. فتحه ومد يده يمررها على الرداء ويقربه من أنفه!.. ثم خرج إلى الشرفة.. دقائق وعاد منها يوقظنى: يجافينى النوم من خواء معدتى.. كلفته جهدا متصنعة النوم حتى تجاوبت ونهضت.. أدرك أن معدته صارت رسول إرادته المنهزمة تأكدى من أنه أدرك فهمى الضمنى لإلحاح معدته المصطنع فى عمق الليل.. مع ذلك نهضت مبدية دهشتى من أن يتملكه الجوع من عشائنا القريب!.. ضحك.. هى ضحكته المحببة إلى نفسى.. كأنه قالها:

ـ «ها أنت تفهمين تخابث معدتى!! ضحكت وأنا أفتح ذراعى عن آخرهما ليلقى بنفسه فى صدرى كمطارد يقفز فى النهر هربا!. أحرر يدى اليمنى القريبة من زجاجة العطر لكنه جاهد يمنعها.. فليس لذلك أهميـة الآن» !.. أصررت .. تملصت.. دخلت فى رداء النوم الجديد ونثرت العطر فوقه.. بعد وقت خمدت عاطفته المستفزة وبدت

نفس المظاهر فى وجهه.. الإحباط.. كمن أسرف فى تهيئة مناخ لأحداث وقعت على نحو لايستاهل ماحشد لها من استعدادات!!.. عاد يشبك أصابع كفيه فوق صدره ويسدد نظره فى سقف الغرفة لكنى قد قرأت صفحة وجهه.. أقسم أننى قرأتها.. محير من شىء كما لو كان السؤال من غير قانع: ماذا بقى لى أن أعطى؟!

بطبيعة الحال منعنى الحياء من أن أتناول مثل هذه التفصيلات فى إحاطة العم خيرى بمتغيرات فى سلوك زوجى جمال ومشاعره.. لكن بقيت معالم واضحة للتغير تناولناها.. ماكان جمال معتادا أن يشترى بنفسه العطر الذى أستخدمه وما اهتم يوما بنوع أرديتى وألوانها قانعا بذوقى فى تخير المناسب منها.. دلالات تحول واضحة فى سلوك رجل بينه وبين الخمسين من عمره ثلاثة أعوام.. إنه رغم عودته لانتظام مواعيده والانخراط فى سلوكنا الحياتى المعتاد.. يبدو وكأنه يتشاغل بنا عن شىء كما المتحرر لتوه من إدمان!.. لكنه فى الوقت ذاته غير قانع منى بشىء!!..

إزاء ذلك راح العم خيرى يستعرض تكهناته: فى الواقع إن تناول شخصية مثل شخصية زوجك بالتحليل أمر صعب عند المحلل النفسى إن لم يرتكز على عون من التصريح عن ذات الشخصية بما ينتابها من تفاعلات نفسية ومحطات حياتية هى المواقف الفاعلة فى حياتها

اليومية.. فمثل هذه الشخصيات التى تتمتع بالذكاء وتتحمل فوق مستوى الشخص العادى من هموم من جراء اهتماماتها الفعلية القائمة على رغبة جادة فى المشاركة فى الأحداث والمتغيرات السياسية والاقتصادية وربما الاجتماعية فى مجتمعها تتكاثر بداخلها المركبات وتتشابك مع صعوبة ملاحقة تلك المتغيرات من جانب فقد القدرة على التأثير إيجابيا فيها بحكم بعد صاحبها عن مواقع النفوذ والسلطة الفاعلة.. إنه وقد استغرق معظم عمره فى اهتماماته السياسية ذاتيا مع الأحداث والمتغيرات.. ثم عاد.. يكفر بكل ذلك من إحباطه واصطدامه بثوابت غير نزيهة عند مثالياته فقد أصبح ـ تقريبا ـ مثل الذى فارق معشوقته لما اكتشفها داعرة دنيئة النفس مخادعة!.. ومن ثم أستطيع أن أحسب مؤقتا ميله للاستقرار بالبيت بعد طول انصراف عنه واهتماماته باستجلاب عطر متميز وأردية نوم على أنه ميل من نفسه لتغيير اهتماماته وخلق شواغل أخرى جديدة تصرفه كلية عن شواغله التى أحبط منها وتصمد به أمام مغازلاتها وإلحاحاتها التى مازال لايأمن تأثيرها!.. وعليه فإن الشاغل الجديد ـ الذى هو أنت ـ مهما كان له من رصيد فى العقل والوجدان سيحتاج لبعض الوقت حتى يصبح الشاغل الوحيد المتغلب على شاغله الأصيل المحبط منه، الأمر الذى يتطلب منك جهدا متميزا يتمثل فى توفير عوامل جذب أشد تنازع إلحاحات شاغله حتى تستخلصه منه تماما!!.. أما عن

الفترة التى تعمد فيها إخفاء حقيقة وجهته وأسباب تخلفه عن العودة للبيت فربما كانت إرهاصات الكشف عن بديل لذلك الشاغل ولما كان غير متفهم لذلك التحول فى داخله فقد تفاعل معه على أنه التمرد على كل الثواب!..

وللحقيقة عدت من ذلك التحليل قانعة عازمة على الاضطلاع بالدور المطلوب منى الذى هو جعل نفسى شاغله الجديد الذى يتغلب على الشاغل القديم بكل احباطاته.. غير أننى عدت أنتظر عودة جمال حتى ساعة متأخرة من الليل فاستغيبه النوم فانتزعنى من انتظاره حتى فوجئت به راقدا بجوارى فى الصباح دون أن أشعر بساعة حضوره!.. وثلاثة أيام أخرى مرت رصدت فيها تفوق الشاغل القديم من قبل أن أبذل أى جهد فى منازعته إذ عاد جمال يتغيب ويتوه منى وينام فى انفراداتنا وكأنه يدخر نفسه لمهمة.. صرخت فى التليفون:

ـ عمى خيرى.. الحقنى.. مرة أخرى تاه منى جمال!!!..

واصل العم خيرى جهوده حتى عاد إلىّ بالحقيقة.. ماكنت أحسبه يمهد ليعفينى تصدعا ينتج عن دويها!.. بوجه باسم يبعث إلى الاطمئنان لما أسفرت عنه جهوده البحثية يتحدث:

ـ ألم أقل لك.. إن شخصية مثل زوجك تتمتع بالذكاء وتتحمل فوق مستوى الشخص العادى من هموم من جراء اهتماماتها الفعلية

القائمة على رغبة جادة فى المشاركة فى الأحداث والمتغيرات السياسية والاقتصادية وربما الاجتماعية فى مجتمعها تتكاثر بداخلها المركبات وتتشابك فى صعوبة ملاحقة تلك المتغيرات إلى جانب فقد القدرة على التأثير إيجابا فيها بحكم بعد صاحبها عن مواقع النفوذ والسلطة الفاعلة.. وأنه بعدما أنفق عمره فى اهتماماته السياسية والتفاعل ذاتيا مع الأحداث والمتغيرات عاد يكفر بكل ذلك من إحباطه واصطدامه بثوابت غير نزيهة عند مثالياته.. وعليه فقد صار كالذى فارق معشوقته لما اكتشفها داعرة دنيئة النفس مخادعة.. ومن ثم راح يبحث عن شاغل جديد!..

وتوقف العم خيرى ينظر فى وجهى وأنا أومئ برأسى موافقة وكأنى أؤكد أنها القناعة التى استرحت لها.. ثم عاد يتحدث:

ـ هو كذلك و.. لكنى فى الواقع أخطأت لما اعتدتك الشاغل الجديد!

ربما كنت قدقفزت فوق كرسى دون أن أدرى أو صرخت فى وجه الرجل وأنا أقولها:

ـ ها .. إنها الحقيقة تتبدى. لطالما أحسست أن هناك امرأة أخرى.. قلها بالله عليك.. ماعدت أملك صبرا على هدوئك أيها العم.. أرجوك ؟!

.. فعاد الرجل يهدئ من روعى:

ـ لا ياابنتى.. ليس الأمر على هذا النحو.. رويدا.. إن التماسك يعوزك فى موقفك الآن.. إن زوجك مريض.. مريض بحق.. سؤال: أين يذهبون بمدمن؟.. لمقصلة أو .. سجن.. أم مصحة؟!.. لمصحة طبعا.. فالمدمن مريض.. المحبط يتخير بديلا لشاغله الذى أحبطه.. تكون إرادته ضعيفة.. لايصح أن نحاسبه كالمالك إرادته كاملة.. لنعتبر ظروفه قد ساقته لبديل غير مناسب فحسب ومن ثم عليك إنقاذه.. فى مثل حالة زوجك يصح أن يكون بيتك هو مصحته..

استفرزت تماما من دوران الرجل حول الخطر الذى ألم بزوجى واستطرده دون أن يصرح بحقيقة.. فعدت أرجوه من جديد:

ـ قلها أيها العم، إنك ذاهب لتحطيم أعصابى بينما أنا مستعدة لتحمل الحقيقة بجملتها..

.. كأنها ابتسامة آسفة مشفقة من ضعفى تلك التى ارتسمت على شفتيه وهو يقول:

ـ إن منافسة لك ظهرت على ساحة زوجك!..

.. وعقبت فى لهفة:

ـ امرأة يعنى؟.. ألم أقل لك إننى طالما أحسست أن هناك امرأة أخرى؟.. تزوجها؟!



ـ نعم .. زواجا عرفيا..

ـ إذن لن أعيش معه بعد اللحظة..

ـ تكونى انهزامية.. تركت الساحة عن ضعف بينما منافستك أضعف من أن تتحمل صمودك صامتة فحسب!!..

ـ لاتهمنى من تكون التى تنافسنى فيه.. إنما يهمنى زوجى الذى آثر غيرى وراح يتمرغ فى أحضانها.

ـ ياابنتى إن مجتمعنا يمر بمتغيرات اجتماعية خطيرة.. إننا فى ظل ظروفنا الاقتصادية الوعرة نحسب أن أصعب الأمور قيام أسرة ناشئة بما يلزم ذلك من متطلبات مادية.. بينما الواقع يصرخ بأن الحفاظ على الأسر القائمة فعلا صار أصعب بكثير من غياب المثل والقيم!.. كيانات محبطة كثيرة تفرخها طبيعة المرحلة.. إرادت تموت كل يوم يأسا من اصطدامها بمتغيرات غير نزيهة أقوى من الثوابت المثالية وأعم.. حوائط ثقة تنهدم فوق رؤوس من أعموا عيونهم وأصموا آذانهم عن المتغيرات التى طرأت..

ـ مالى أنا وذلك.. إنها مشكلتى فى زوجى وليس مجتمعى؟!

ـ إن هذه هى المشكلة الرئيسية.. كل منا يحسب نفسه مجتمعا منفصلا عن المجتمع وفى ظل التحسب من غد غير آمن فى الدخل والقوت والسكن بل كل متطلبات الحياة يسعى كل واحد كمجتمع



مستقل لتأمين نفسه.. كل منا يسلب الآخر حقا دونما اكتراث بنقد أو لوم من المجتمع الكل لسلوكه المشين فى سبيل تأمين نفسه.. كأن الخير قد نضب ومازلنا نتصارع حول الذى بقى بين أيدينا.. كل يسرق ماينقصه هو كمجتمع مستقل.. إن التى سرقت زوجك واحدة ينقصها الرجل!!.

ـ وهل كنت أنصب نفسى حارسا لزوجى لأحرسه من النسوة فى الشارع؟!

ـ لكن التى سرقته لم تسرقه فى الشارع.. بل سرقته فى البيت.. بيتك!! لذلك أنت المسئولة معه عن السرقة التى تعرضتما لها!..

ـ كيف؟ .. لايمكن أن يحدث ذلك!!..

ـ بل حدث! .. إنها ابنة عمتك التى طالما أشفقت عليها وابنتها الصغيرة من سطوة شقيقها المعترض على سلوكها كأرملة وإصرارها على الإقامة بمفردها فى شقتها وهى شابة صغيرة.. استضفتيها لعدة أيام تعالجين فرائصها المرتعدة خوفا من شقيقها ومازلت تقرين حقها فى اختيار أسلوب معيشتها! خرجت من بيتك بعد أن أقامت جسرا بينها وبين زوجك.. امرأة تصغرك بعشر سنوات.. تضاهيك جمالا وجاذبية ولكن جاذبيتها المتحللة من القيم أشد وأقوى.. وارثة الكثير عن زوجها الثرى.. متفرغة لاتعمل.. اصطادت زوجك المحبط.. فى



أوج تصورك أنه أقوى من أن ينزلق كان أضعف بإحباطاته لما استدعيت أنت البديل الرخيص الذى يستوعب كل الإحباطات فيه.

ـ فاتن ؟! ابنة عمتى؟!.. لكن من أين لك كل هذه المعلومات؟!

ـ ظللت وراء جمال حتى أفضى إلىّ بكل معاناته.. شهر حب.. وشهر زواج.. شهر خلافات.. كانا قد اتفقا اتفاقا زواجيا غريبا.. أن تظل العلاقة بينهما بعيدة عن الماديات.. أى لايتكلف أحدهما عبئا ماديا قبل الآخر!! ويجعلك تستغربين أكثر أن شقيقها الثائر على سلوكها مؤيدا من أمه التى هى عمتك قد أقر هذا الزواج بمجرد أن أفسحت لهما مجالا لتحقيق استفادات مادية من ماليتها!!.. ثم أتذكرين يوم عاد إليك بالعطر ثم رداء النوم؟! إنه كان فى قمة تمرده على هذه العلاقة التى لم يتواءم معها فكان العطر ورداء النوم هى الأشياء التى حسبها تجذبه إليها فاستعان بها ليحول انجذابه إليك.. كان من الممكن أن يفلح فى ذلك لو أنك أضفت من روحك لهذه الأشياء واحتويته.. تظنين لماذا لم يخبرك بزواجه منها؟!.. يدرك أن هذه العلاقة لن تعيش.. فكيف يدمر علاقة دائمة من أجل أخرى مؤقتة؟!.. لقد قال لى:

إننى متأكد من أن أسباب انجذابى للحقيرة فاتن غير أخلاقية بالمرة!!.. فيها نوع من الوسخ يحيلنى حيوانا بلا هموم!!..

ـ ومعنى ذلك؟.. المطلوب منى الآن؟!

ـ مثله يتغذى من هموم رأسه.. أما سعيه لحيوانية يتخلص معها من همومه إنما هو زعم مكابر من نفسه أمام فقده لشريك يناقشها معه ويجادل فيها..إنه بمثابة الانتحار خلاصا من وحدة يمقتها ويرى فيها الموت البطىء يزحف نحو عنقه ليخنقه.. إنه فى حاجة ـ مؤقتا ـ لمناخ متوازن بين مشاركة عقلية فى اهتماماته ونزوع نفسه لتلك الحيوانية حتى يكتفى فى النهاية بشريك اهتماماته فى إطار حياتى طبيعى.. لاتكاشفيه بما بلغك من معلومات.. اجعلى مجالا يستوعب حوار اهتماماته.. يكفيك مطالعة الصحف اليومية لتكون لديك نواة حوار دائما معه.. ثم .. يبقى سلوك الأنثوى الذى أحسبنى معفيا من تناوله!!.. فلكن أسلوبكن يابنات حواء وأسلحتكن ماعرفنا منها نحن الرجال وما لم يبلغ علمنا بعد!.. اليوم .. وبعد مضى شهر من علمى بزواج جمال العرفى من فاتن ابنة عمتى.. أستطيع أن أهنىء نفسى بتفوقى على هذه المرأة الحقيرة بما تملك من إغراء التحلل من القيم والقدرة المادية التى توفر وقتها لجذب رجل وتجعلها رخيصة غير مكلفة لمعاشرها! تفوقت برصيدى من الحب الحقيقى مستثمرة كل ماتوفر لى من دراية بنوازع زوجى فترة إحباطه.. غير أننى لا أخفى أن شعورى بالأسف قد بقى فى نفسى من تجربة زوجى قدرا من قناعة رسخ فى اعتقادى بأن الظروف الحالية جعلت الإنسان غير آمن.

صدر للمؤلف	
١ ـ بائع الأحلام	مجموعة قصصية
٢ ـ الحرب على الشيطان	دراسة إسلامية
٣ ـ أغرب طرق زواج	دراسة اجتماعية
٤ ـ اعترافات نسائية	مجموعة قصصية
٥ ـ العلاج الربانى لمرض العصر النفسانى «المال ـ الجاه ـ الجنس»	دراسة إسلامية
٦ ـ نساء مشاغبات مجموعة قصصية	
٧ ـ الاختيار الجنسى والخلقى للزواج	

الفهرس

رقم الإيداع ٩٤/٢١٨٦

I.S.B.N 977-264-210-7

مطابع زمزم - مهندس يوسف عز - العاشر من رمضان

